رواية

#941

ليوناردو پادورا

وَدَاعاً همنغوَي

مكتبة

ترجمة: بسّام البزّاز

مكتبة | سُر مَن قرأ

#941

وَدَاعَاً همنغْوَي

رواية

Author: **Leonardo Padura**
اسم المؤلف: ليوناردو پادورا

Title: **Adiós, Hemingway!**
عنوان الكتاب: وَدَاعَاً همنغوَي

Translated by: **Bassam Al-Bazzaz**
ترجمة: بسّام البزّاز

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada**
الناشر: دار المدى

First Edition: **2021**
الطبعة الأولى: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Leonardo Padura,
2006 Published by agreement with
Tusquets Editores, Barcelona' Spain

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

مكتبة ٢٠٢٢ ٨ ٢٩
t.me/t_pdf

ليوناردو پادورا

مكتبة | سُر مَن قرأ

وَدَاعَاً همنغْوَي

#941

ترجمة : بسّام البزّاز

مقدمة قصيرة جدّاً جدّاً

«كنتُ معجباً بذلك الرجل، لكنّه باتَ أثقلَ على قلبي من الجبل. لقد تبيّن لي أنّي لا أعرفه. ولستُ أنا الوحيد الذي لا يعرفه، بل لا أحدَ في الواقع يعرفه. دعني أتحقق من الحكاية فربّما أصلُ إلى حقيقته»

(المُحقّق كونده مخاطباً مُلازم الشرطة پلاثيوس)

***

طلب الخليفة عمرُ بن الخطاب من الشاعرِ حسّان بن ثابت أن يبيّن إن كان الحطيئة مدح الزبرقانَ بن بدر أم هجاه حين قال له:

دعِ المكارمَ لا ترْحلْ لبُغيتِها
واقعدْ فإنّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

فقال له حسّان: لم يهجُه بل سَلَحَ عليه.

***

بايْ بايْ، همنغوَي!

بسّام

مكتبة
t.me/t_pdf

هذه الرواية، مثلها مثل سابقاتها،
ولاحقاتها،
مهداة إلى لوثيّا
مع حبّي وهيامي

ملاحظة للمؤلف

في خريف 1989، وبينما كان إعصارٌ عاتٍ يضرب هافانا، انتهى الملازم ماريو كونده من آخر قضيّة له في قسم التحقيقات. كان قد اتخذ قراره بترك العمل في الشرطة والتفرّغ للكتابة. قدّم استقالته يوم أتمّ السادسة والثلاثين. يومها بلغه خبرُ عزم أحد أصدقائه القدامى على مغادرة كوبا إلى غير رجعة، وقد أشرتُ إلى مغامرة ماريو كونده الأخيرة هذه في رواية منظر خريفي، وهي الأخيرةُ في سلسلة «الفصول الأربعة»، التي كتبتُها ونشرتُها بين عامي 1990 و1997، والتي ضمّت أيضا روايات «ماض تام» و«رياح الصوم الكبير» و«أقنعة».

قررتُ، إذن، أن أمنح ماريو كونده إجازة لوقت بدا لي أنّه سيطول، وبدأتُ بكتابة رواية لم أشركْه فيها. في تلك الأثناء، اتصل بي ناشرو كتبي البرازيليون، وسألوني إن كنتُ راغباً في المشاركة في سلسلة يعتزمون إصدارها تحت عنوان «أدبٌ أو موت»، وطلبوا منّي أن أخبرهم، في حال موافقتي، عن اسم الأديب الذي ستدور حوله حكايتي. وصادفتْ فكرة البرازيليين قبولاً في نفسي. أمّا الأديبُ الذي وقع عليه اختياري فهو إرنست همنغوي، الذي كانت لي معه، ولسنوات، علاقة غريبة، هي مزيج من حُبّ ونفور. لم يخطر ببالي، حين فكّرتُ في تناول موقفي الشخصي من مؤلف «حفلة»[1]، غير أن أرمي بأحاسيسي وهواجسي على عاتق ماريو كونده - كما فعلتُ مرات ومرات-، وأجعلَ منه - كما فعلتُ مرات ومرّات- بطلَ الحكاية.[2]

1- Fiesta وهي نفسها The Sun Also Rises أو «ثمّ تشرق الشمس». أولى رواياته المهمة.

2- المحقق الخاص ماريو كونده هو بطل سلسلة روايات بادورا البوليسيّة الأربع المذكورة.

فكّرت أن أبني أحداث هذه الرواية على علاقة مزعومة بين همنغوي وكونده، نشأت إثرَ اكتشاف جثة دفنت في مزرعة المؤلف الأمريكي في هافانا. هنا أجدُ لزاماً عليّ أن أنبّه إلى وجوب ألا تخرجَ الرواية عن نطاق صفتها ووصفها، كيفما قُرئت، ومن أيّة زاوية رُصدت: فما ستقرأون محضُ رواية، حكايةٌ صِرف، بل لقد أضفتُ على الكثير من أحداثها، بما فيها التي استقيتها من أصحّ الوقائع وأدقّ التواريخ، من خيالي إلى درجة أنّي ما عدتُ أدري أين تنتهي ريشة المروحة اليدوية هذه وأين تبدأ تلك. مع ذلك، وعلى الرغم من أنّني أبقيتُ على بعض الشخوص أسماءها الحقيقيّة، فقد أعدتُ تسمية أخرى تجنّباً لحساسيات محتملة، لذلك امتزجت شخصياتُ الواقع بشخوص الخيال، في أرض لا حكم فيها إلا لقواعد الرواية ولا كلمة فيها إلا لزمانها. وعليه، فهمنغوَي هذه الرواية همنغوَي مصطنع، مصنوع، لأنّ القصّة التي سنراه فيها من نسج خيالي، بل لقد استعنتُ فيها بالإجازات الشعريّة وأساليب ما بعد الحداثة، واستخدمتُ فقراتٍ من أعماله ومقابلاته لنسج أحداث الليلة الليلاء، ليلة الثاني على الثالث من أكتوبر 1958.

أخيراً أودّ أن أعربَ عن امتناني للعون الذي تلقيته من فرانسيسكو إيتشيبارّيا، ودانيلو أرّاتي، وماريّا كاريداد بالديس فرناندیث، وبلقيس ثيدينيو، المتخصصين في متحف مزرعة «بيخيّا»[3]، وجميعهم من الكوبيين المهووسين بهمنغوَي. تلقيتُ المساعدة أيضاً من قرائي الدائمين أليكس فليتيس، وخوسيه أنطونيو ميتشيلينا، وفيفيان ليتشوغا، وستيفن كلارك، وأليزاردو مارتينيث، ومن الشخصية الحقيقية الواقعية جون كيرك[4]، ومن زوجتي لوثيا لوپيث كول.

ل. پ. ف

مانتيّا. صيف 2000

3- Vigía اسم مزرعة في أطراف هافانا اشتراها همنغوَي وأقام فيها أثناء سنواته الطويلة في كوبا.

4- يشير إلى John M. Kirk أستاذ الدراسات الأمريكية اللاتينية في جامعة دلهاوسي الكندية ولهما معاً كتاب عنوانه «الثقافة والثورة الكوبيّة» La cultura y la Revolución cubana.

تذييل

هذا النص، ولأسباب تتصل بشروط العقد، لم يُنشر إلّا في إسبانيا. هو في جوهره نفسه الذي نشر عام 2001. مع ذلك، فقد أغراني، حين راجعته، تمهيداً للطبعة الجديدة، بأن أدخلَ عليه بعض التعديلات الطفيفة التي لا تغيّر شيئاً في مسار الحكاية ولا في طباع الشخوص.

ما زلتُ في مانتيّا، صيف 2005

حيثُ يرقدُ الأمواتُ، لا يكون الطقس قائظاً على الدوام؛ فكثيراً ما يغسلهم المطرُ وهم فوق التراب، لتكون أبدانُهم نديّةً حينَ يكونونَ رقوداً تحتَه، وقد ينهمرُ المطرُ وينهمر حتّى يصبحَ الترابُ وحلاً، وعندها يظهرونَ فوقَه، وعندها يلزم أن يُدفنوا من جديد.

إرنست همنغوَي

«التاريخ الطبيعي للموت»

مكتبة
t.me/t_pdf

-1-

بصق، ثمّ نفث بقايا الدخان من رئتيه، ثمّ ألقى بعقب السيجارة في الماء، بعد أن سحقه بأصابعه. أعادته لسعةُ تلك الجمرة إلى الواقع، فوجد نفسه، وقد عاد إلى عالم الأحياء الأليم، يتساءل عمّا جاء به إلى هناك، إلى مكانه، قبالة البحر، عازماً القيامَ برحلة إلى الماضي، لم تخطر له على بال. وراح يوطّن نفسه على فكرة أنّ الكثير من الأسئلة التي سيطرحها على نفسه، منذ تلك اللحظة، ستظلّ من دون إجابة. ولكن خفّف من قلقه تذكّره أنّه طالما مرّ بهذا الإحساس مع أسئلة كثيرة ألحّت عليه طوال حياته، حتّى انتهى إلى تقبّل حقيقة مُرّة ألزمته بأن يتعايش مع الشكوك أكثر من أن يتعايش مع الحقائق، وبأن يألف الخسارة أكثر ممّا يعتاد الربح. بل ربّما كان ذلك هو ما جعله يترك عمله في الشرطة، وربّما كان ذلك هو ما يجعله يؤمن، يوماً بعد يوم، بعدد أقلّ من الأشياء. فكّر. ووضع سيجارة أخرى بين شفتيه.

وجد في النسمة اللطيفة القادمة من الخليج، نعمة حلّت عليه وسط حرّ الصيف اللاهب. لكنّ ماريو كونده لم يختر بقعة الكورنيش المظللة بأشجار الكزوارينة العتيقة تلك لأسباب تتصل بشمس أو بحرارة شمس، بل لقد جلس على السور، ورفع قدميه نحو الصخور، ليستمتع بإحساس مَن يتحرر من طغيان الوقت، ويتلذذ بفكرة من صار في مقدوره أن يمضي في تلك الرقعة الصغيرة بقيّة أيام حياته، لا شاغل له غير التفكّر والتذكّر والنظر إلى البحر الهادئ الوادع. فهكذا سيكون في مقدوره، إن عنّت له فكرة جيدة، أن يكتب، بعد أن أقام جنته الخاصة، واتخذ من البحر ومن صخبه وهديره، مسرحاً يلائم أشباح روحه وأطياف ذاكرته العنيدة، التي تعيش في أحضانها، وتتشبّث بها كما الغريق بالحياة، صورةً جميلة يرى فيها نفسه نزيل

بيتٍ خشبي، يقع قبالة البحر، ينكب فيه صباحاً على الكتابة، وعصراً على الصيد والسباحة، وليلاً على مضاجعة امرأة شهيّة ومثيرة، لها شعر رطب، ينبعث منه عطر الصابون الذي ينافس عطوراً أخرى تضوع من بشرتها التي حمّصتها أشعة الشمس. ومع أنّ الواقع قضى، وبالوحشيّة التي تميّزه الواقع دائماً، على ذلك الحلم من سنوات، فما زال كونده لا يفهم سبب تشبثه بتلك الصورة التي ما عاد يتبيّن منها إلا أضواء خافتة ووومضات مبهمة، لطختها فرشاة انطباعية غير ماهرة، بعد أن كانت صورة فوتوغرافيّة بالغة الوضوح.

لذلك لم يكن يقلقه، عصر ذلك اليوم، سببُ سلوكه ذلك الطريق: فهو يعرف أنّ عقله وبدنه ألحّا عليه إلحاحاً بأن يعود إلى خليج «كوخيمار» الصغير، المزروع في ذاكرته وذكرياته. فكلّ شيء بدأ في الواقع هناك، عام 1960، في ذلك المكان، قبالة البحر نفسه، تحت أشجار الكزوارينة نفسها، بين العطور الدائمة نفسها، يومَ تعرّف على إرنست همنغوي، قبل أربعين سنة من ذلك اليوم. ضاع منه تاريخ اللقاء، التاريخ الدقيق المحدّد، كما ضاعت الأشياء الجميلة الكثيرة في حياته. إنّه لا يستطيع الجزمَ إن كان عمره يومذاك خمس سنوات أم ستاً، وإن كان جده اعتاد، وقتها، أن يحمله في جولاته بشتّى النواحي، من حظائر الديكة إلى طاولات الدومينو، ومن بارات الميناء إلى ملاعب الكرة، تلك الأماكن العزيزة التي اختفت كلّها تقريباً بأوامر وقوانين، تلك الأماكن التي تعلّم كونده فيها الكثير ممّا يجب على كلّ إنسان أن يتعلّمه فبعد أن شهد، في ذلك المساء المطبوع، نزالات للديكة في حي «غواناباكوا»، قرّر الجدُّ، وكان يربح دائماً تقريباً، أن يكافئ حفيده فأخذه إلى بلدة «كوخيمار»، القريبة من هافانا، والبعيدة عنها في الوقت نفسه، ليتناول فيها ما كانت عنده ألذّ مثلجات كوبا، مثلّجات يبيعها صيني يدعى كاسيميرو چون، مصنوعة بمكائن خشبيّة، ومطعمة بفواكه بلديّة طازجة.

ما زال مذاق مثلجات المامي تلك على لسان كونده. ذلك المذاق الناعم اللزج. وما زالت ذكرى، يظنّ أنّه يتذكّر، سعادته وهو يتطلّع إلى يخت خشبي، بنّي اللون، رائع الشكل، يناور في البحر، وتظهر منه عصوا صيد كبيرتان فيبدو كأنّه حشرةٌ بمجسّين، طافية على سطح الماء. وراح كونده الصبيّ، إن صحّت الذكرى، يتابع اليخت بنظره وهو ينسابُ مقترباً من الشاطئ، متجنباً

أسطول قوارب الصيد المضعضعة الراسية في الخليج الصغير ومناوراً للرسو قريباً من المرفأ. حينها قفز من اليخت رجلٌ أحمرُ، عاري الصدر، ليتلقّى، من على الرصيف، الحبلَ الذي ألقاه له، من المركب، رجلٌ آخر، يضع على رأسه طاقيّة بيضاء وسخة. سحب الرجلُ الأحمر اليختَ إلى مكان قريب من قائم أسمنتي سحباً وربط الحبل عليه ربطاً محكماً. ربّما أوضح جدّه روفينو له شيئاً حول ما كان يرى، لكنّ عينيّ كونده وذاكرتَه توقفت عند الشخص الآخر، رجل الطاقيّة، الذي كان يضع على عينيه نظاراتٍ دائريّة خضراءَ الزجاج، وله لحية كثّة علاها الشيب. لم يكفّ الطفل عن التطلّع إليه وهو يقفز من المركب اللامع ويتوقف للحديث مع الأحمر، الذي كان ينتظره على الرصيف. سيحيا كونده وهو مقتنع بأنّه رأى ذينك الرجلين يتحادثان، يتصافحان، ويشدّان بعضهما على يدَي بعض، لوقت لا تحدده الذكرى، ربّما دقيقة وربّما ساعة، لكنّهما ظلّا ممسكين أحدهما بيد الآخر إلى أن عانق الرجلُ العجوز الملتحي الرجل الآخر وتقدّم، من دون أن ينظر خلفه، على الرصيف نحو الشاطئ. شيءٌ من سانتا كلاوس كان في ذلك الرجل الملتحي، الملطّخ، ذي اليدين والقدمين الكبيرتين. شيءٌ من الحزن كان يعلو محيّاه، وإن بدا واثق الخطو ثابتَ الخطوات. ولعلّ شعوره ذلك ناشئ من تأثير مغناطيسي تنبؤي عميق موجّه نحو عالم الحنين الذي لم يعشه بعد، العالم الكامن في مستقبل ما كان للطفل أن يستشرفه.

حين صعد الرجلُ ذو اللحية المشوبة بالبياض درجَ الأسمنت وبلغ الرصيف، استطالت قامته، ورآه كونده يخلع طاقيته ويضعها تحت إبطه ثمّ يخرج من جيب قميصه مشطاً بلاستيكياً صغيراً ليصفف به شعره ويرجعه إلى الوراء، المرّة تلو المرّة، فكأنّ التكرارَ من متطلّبات تصفيف الشعر. وبات الرجلُ، للحظة من اللحظات، قريباً من كونده ومن جدّه إلى درجة أنّ الطفل تلقّى دفقة من رائحة نتنةٍ كاوية، كانت مزيجاً من عَرَق وبحْر، من نفطٍ وسمك.

– ما أسوأ هذا! – همهم العجوز. ولم يفهم كونده إن كان جدّه يشير إلى الرجل أم إلى الطقس، ففي تلك الجزئيّة من استحضاره امتزج ما تذكّره مع ما تعلّمه. اختلط في ذاكرته مسيرُ الرجل بصورة رعدٍ قادم من بعيد،

لذلك اعتاد كونده أن يقطع عند تلك اللحظة استحضارَ لقائه الوحيد مع إرنست همنغوي.

– ذاك هو همنغوي، الكاتب الأمريكي – أضاف جدّه بعد أن مرّ الرجل–. هل تعلم أنّه أيضاً يحبّ مصارعة الديوك؟

يخيّل لكونده، أو يروق له، على الأقل، أن يتصوّر، أنّه سمع ذلك التعليق بينما كان ينظر إلى الكاتب، الذي صعد إلى سيارة «كريسلر» برّاقة سوداء، كانت تقف في الطرف الآخر من الشارع. ويخيّل له أنّ الكاتب أخرج يده من نافذة السيارة ليلوّح، ونظاراته الخضراء على عينيه، بإشارة وداع بدت موجهة نحوه، هو وجدّه، وإن اتّسع مجالُ تحيته قليلاً، لتتوجّه إلى مكان أبعد، نحو الخليج الصغير، حيث اليختُ والرجل الأحمر الذي كان قد عانقه، بل إلى ما هو أبعد من ذلك، نحو البرج الإسباني القديم الذي شيّد ليتحدى القرون، أو ربّما إلى ما هو أبعد من ذلك، نحو تيّار الخليج البعيد المتدفق، الذي لا يعرف ذلك الرجلُ، الذي تنبعث منه رائحة البحر والسمك والعرق، أنّه لن يعاود الإبحار فيه. لكنّ الطفلَ تلقّف التحية في الهواء وردّها بيده وبصوته، قبل أن تنطلق السيارة براكبها:

– وداعاً همنغوي – صاح الطفل، وتلقّى ابتسامة الرجل ردّاً على تحيته.

بعد عدة سنوات، حين اكتشف ماريو كونده نزوعه الوبيل إلى الكتابة وبدأ باختيار أدبائه المفضلين، علم أنّ رحلة إرنست همنغوي تلك كانت الأخيرة له في بقعة البحر التي لم يتعلّق قلبُه إلاّ بقليلات مثلها، وأدرك أنّ الكاتب لم يكن، وهو يلوّح بيده من نافذة سيارته، يقصده هو، لم يكن يودّع تلك الحشرة الصغيرة الضائعة في مرسى «كوخيمار»، بل كان يودّع، لحظتَها، أشياء كثيرة أهمّ في حياته.

***

– أتريد كأساً أخرى؟

– أوكي – ردّ كونده.

– دبل؟

– طبعاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

– كاتشيمبا، كأسين دبل من الرون – صاح الملازم مانويل پلاثيوس، وقد رفع ذراعه، متوجهاً إلى الساقي، الذي صبّ الشراب لهما من دون أن ينزع الغليون من فمه.

لم يكن «التورّيون» باراً نظيفاً، وأقلّ من نظافته إنارتُه، لكنّه، في ساعة منتصف النهار القائظة تلك، كان يجمع بين الرون والهدوء وقلّة الزحمة، فكان في مقدور كونده، من طاولته، أن يتأمّل البحرَ وأحجارَ، ذلك البرج الكولونيالي الذي اتخذت حانة الصيادين القديمة تلك من اسمه الحجري اسماً لها[5]. اقترب الجارسون متكاسلاً من الطاولة ليضع كأسين ممتلئتين، ويحمل الفارغتين، بعد أن حشرهما بين أصابعه وأظافره الوسخة ونظر إلى مانولو[6].

– كاتشيمبا أمُّك[7]– قال–. ولا يهمّني أن تكون شرطيّاً.

– كاتشيمبا، يا رجل، لا تغضب – قال له مانولو يهدئه–. أنا أمزحُ معك.

نظر الجارسون إليه شزراً وابتعد. وكان قبلها قد نظر إلى كونده بعينين غاضبتين حين سأله إن كان «بابا همنغوي» يتناول عندهم شرابه المفضّل، «الدايكيري»، الكوكتيل المعمول من حصّتين من الرون وعصير الليمون وقطرات من الماراسكينو والكثير من الثلج المخفوق وبلا سكّر.

– آخر مرّة رأيتُ فيها الثلج كانت حين كنتُ بطريقاً – ردّ الجارسون.

– وكيف عرفتَ أنّي هنا؟– سأل كونده زميله السابق، بعد أن عبّ نصف كأسه.

– ألستُ شرطيّاً؟

– لا تسرق عباراتي.

– ما عادت تنفعُك، كونده... ما عدتَ شرطيّاً – ابتسم الملازم المحقق مانويل پلاثيوس–. بسيطة، فأنتَ لا تظهر في أيّ مكان، وبما أنّي أعرفك جيداً، فقد خمّنتُ أنّي سأجدك هنا. لا أذكر كم مرّة حكيتَ لي قصّة اليوم الذي رأيتَ فيه همنغوي. هل قال لكَ وداعاً حقاً أم كان ذلك من صنع خيالك؟

5– Torreón تكبير كلمة Torre ومعناها «برج».

6– مانولو Manolo هي الصيغة العائلية لمناداة من اسمه مانويل Manuel.

7– Cachimba هي الشيشة أو الأرجيلة.

– تحققْ من ذلك بنفسك، أوَ لستَ شرطيّاً؟

– ما أخبثكَ!

– لا أدري. لا أريد أن أخوضَ في هذا...لكنّي، مع ذلك، أريدُ أن أخوضَ فيه.

– انظر. خضْ ما بدا لك، وتوقّف عن الخوض حين تشاء. فما عاد الموضوع مهمّاً. نحن نتكلّم عن أربعين سنة تقريباً...

– لا أدري ما الذي جعلني أماشيك... لأنّي لن أستطيع التوقف وإن أردتُ التوقف.

لام كونده نفسَه، ثم جلد ذاته بأن عبّ ما بقيَ في كأسه من الشراب. قد تكون ثماني سنوات خارجَ الخدمة سنواتٍ طويلة، لكنّه لم يتصوّر قط أن عودته إلى الميدان ستكون على ذلك القدر من السهولة. صحيح أنّه بات يخصص ساعات من وقته للكتابة، أو لمحاولة الكتابة، لكنّه بدأ ينفق بقيّة ساعات نهاره باحثاً، في أرجاء المدينة، عن كتب قديمة لشرائها وحملها إلى كشك صديق يدفع له خمسين بالمئة من الأرباح. ومع قلّة ما يكسبه من تلك التجارة، فقد كان يستمتع بعمله ذاك لجملة من الظروف والأسباب: فمن أسباب شخصيّة وعائليّة تقف وراء قرار بيع مكتبة تكوّنت على مدى ثلاثة أجيال أو أربعة، إلى وقتٍ مفتوح يتحكم به هو بين شراء الكتاب وبيعه، يقرأ أثناءه كلّ ما يراه ممتعاً ومشوّقاً، قبل أن يقرّر الذهاب به إلى الكشك. أمّا ما كان يؤلمه في تلك التجارة، حتّى لكأنّه جرحٌ في جسمه، فهو الإهمال الذي تشكو منه كتبٌ قديمة وثمينة والتجاهل الذي تلقاه، ممّا يُعرّضها لتلفٍ لا يرتجى صلاحه. يؤلمه أيضاً أن يجد نفسه تنزع إلى الاحتفاظ بهذا الكتاب أو ذاك، بدلاً من حمله إلى كشك صديقه، في ردّة فعل غريزيّة تشي بولعه القديم والوبيل بالكتب. لكنّ هاتفاً وحشياً جاءه ذلك الصباح من زميل له أيّام خدمته في الشرطة، جعله ينظر بحزن إلى الورقة البيضاء المحشورة في آلته الكاتبة القديمة، ويردّ على عرض الصديق القديم بالإيجاب حالما سمع منه: إنّ الصديق يقدّم له، على طبق من فضّة، عرضاً بأن يسلّمه، ومن وراء ظهر الدائرة، ملفّ قضيّة القتيل الذي ظهرت جثّته في مزرعة «بيخيّا».

كانت تلك العاصفة الصيفية قد وصلت إلى الحي الذي يسكن فيه، وضربته بقوة، شأن كلّ العواصف الصيفيّة، المحملة بالماء والريح والصواعق، والتي تصل من دون سابق تحذير، في أيّة ساعة من ساعات العصر، لتؤدي رقصة سريعة مرعبة فوق بقعة تختارها من الجزيرة، وبقوة كفيلة باقتلاع حقول الموز وغلق قنوات التصريف. صحيح أنّها عواصف شديدة، لكنّها نادراً ما تُحدث خسائر جسيمة. أمّا عاصفة ذلك العصر فقد ألحقت خراباً كبيراً بالمزرعة التي أقام همنغوي فيها بيته الهافاني القديم، فقلعتْ طبقة من قرميد السطح وقطعتْ قسماً من أسلاك الكهرباء وأطاحتْ بقطعة من سياج الباحة وتسببتْ في قلع شجرة مانغو قديمة متهالكة، يبدو أنّها زرعت في وقت سبق بناء البيت عام 1905. لقد بدا ما حدث للشجرة وكأنّه من صنع السماء. فمع الجذور ظهرت عظام، قال الخبراء عنها إنّها لرجل أبيض يبلغ الستين، كان يشكو من التهاب في المفاصل وكسر قديم لم يلتئم في رضفة القدم، وقدّروا أنّه مات بين عامي 1957 و1960 من رصاصتين: تلقى إحداهما في الصدر، يرجح أنّها اخترقته من ناحية اليمين فأصابت عدداً من الأجهزة الحيوية وكسرت عظم القص والعمود الفقري. أمّا الرصاصة الثانية فيبدو أنّها دخلت من منطقة البطن، لأنّها كسرتْ ضلعاً في منطقة الظهر. إطلاقتان من سلاح قاتل ومن مسافة قريبة في ما يبدو، سببتا موت ذلك الرجل الذي لم يعدْ في تلك الساعة غير كيس من العظام النخرة.

– هل تدري ما الذي جعلكَ توافق على عرضي؟– سأله مانولو وهو ينظر إليه بتمعّن واستمتاع، وحرف حينها عينه اليمنى نحو حاجز أنفه– لأنّ القحبة لا تتوب، تذهب إلى الكنيسة وتصلّي وتعترف، لكنّها لا تتوب. والشرطي مثلها، يظلّ شرطياً. هذا هو السبب، كونده.

– ولماذا لا تخبرني بشيء مفيد بدلاً من هذا الكلام السخيف؟ فبالقليل الذي أعرفه لا أستطيع أن أفعل شيئاً ولا أن أبدأ بـ...

– المشكلة أنّي لا أعرف أكثر ممّا ذكرتُه لك، ولا أظنّ أنّ هناك ما هو أكثر. نحن نتكلّم عن أربعين سنة، كونده.

– قلْ لي، مانولو... مَن المستفيد من هذه القضيّة؟

– إن أردتَ الحقيقة فإنّ المستفيدين، مبدئياً، ثلاثة: أنتَ والقتيل وهمنغوي... الأمر واضح: كان همنغوي حادّ الطبع. ويبدو أنّ أحدهم بالغ، ذات يوم، في إزعاجه فأطلق عليه رصاصتين. أرداه قتيلاً... دفنه... لم يسأل أحدٌ عن القتيل... ثمّ أطلق النار على رأسه وانتهت القصة... لقد اتصلتُ بكَ لأنّي أعرف أنّ قضية كهذه تثير اهتمامك، وقد أردتُ أن تنظر في ملف القضية قبل أن أغلقها نهائياً. حين أغلقها سيشيع الخبر، وستثير قصة القتيل المدفون في بيت همنغوي اهتمامَ الكثيرين وستجد طريقها للنشر في شتى أرجاء العالم...

– سيعجبهم طبعاً أن يقال إنّ همنغوي هو القاتل. فإن لم يكن هو القاتل، فمن عساه يكون؟

– هذا ما عليكَ أن تتحقّقَ منه. إن استطعتَ... اسمع، كونده، أنا غارق في العمل إلى هنا –وأشار إلى مستوى حاجبيه–. الأحوال تسوء يوماً بعد يوم: ففي كلّ يوم لدينا المزيد من حوادث السرقة والاختلاس والسطو، وفي كلّ يوم تزداد الدعارة وتنتشر المخدرات والصور الإباحيّة...

– خسارة أنّي ما عدتُ شرطياً. أنتَ تعرف أنّي أحبّ الصور الإباحية.

– لا تتحامق، كونده: قصدتُ صور الأطفال الإباحية.

– هذه مجرد البداية، مانولو. وما سيأتي أعظمُ وأدهى...

– هذا ما قصدتُه، كونده. فهل تظنّ أنّ من المنطقي، في هذه الأجواء المضطربة، أن أضيّع وقتي في قضيّة رجل فجّر رأسه قبل ألف سنة، وأرى إن كان قتل أم لم يقتل لا أدري مَن؟

ابتسم كونده ونظر إلى البحر. الخليج الصغير، الذي كان في أوقات أخرى يعجّ بقوارب الصيادين، بات مسطحاً مائياً مقفراً متلألئاً.

– هل تعلم، مانولو؟...– توقف وتناول جرعة–. أتمنّى لو كان همنغوي مَن قتل ذلك الرجل. منذ زمن وأنا أستثقل هذا السافل، لكنّي لا أرضى بالطبع أن يُحمّل دمَ قتيل لم يقتله. لذلك سأتحقق قليلاً، وحين أقول قليلاً فأنا أعني قليلاً... هل فتشوا جيداً أنحاء المكان الذي ظهرت فيه الجثّة؟

– لا. كريسپو والغريكو سيتوجهان إلى هناك غداً. فهذا العمل لا يقدر عليه أيّ حفّار.

– وأنتَ ماذا ستفعل؟

– سأواصلُ ما بين يديّ، وبعد أسبوع، حين تُعلمني أنتَ بما توصلتَ إليه، سأغلقُ ملف القضيّة وننتهي من هذه القصّة. وليسقط الخراء على رأس من يسقط.

عاود كونده النظر إلى البحر. كان يعرف أنّ الملازم پلاثيوس محقّ في كلامه، لكنّ شعوراً بالانزعاج استقر في وجدانه. فهل الذنبُ ذنبُ البحر– فكّر– أم لأنّي عملتُ في الشرطة لوقت طويل؟ أم ربّما لأنّي أحاول أن أكون كاتباً؟– قلّب في ذهنه ذلك الاحتمال أيضاً، فهو لا يريد أن يركن طموحه الكبير على الرف.

– تعال معي، أريد أن أريَكَ شيئاً – طلب من صديقه ونهض.

لم ينتظر مانولو، بل عبر الشارع وتقدم بين جذوع أشجار الكزوارينة باتجاه الحديقة الصغيرة، بساحتها المكشوفة، التي أقيمت داخلها قاعدةٌ حجرية وضع عليها تمثال نصفي من البرونز. كانت الشمس، الجانحة إلى المغيب، تلفح بآخر أنفاسها الدافئة، الوجهَ الأخضر الذي علته نصف ابتسامة، وجهَ الرجل الذي أرادوا تكريمه وتخليده.

– حين بدأتُ الكتابة بدأتُ أكتبُ مثله. هذا الرجل كان يعني الكثيرَ بالنسبة إليّ – قال كونده، وقد ثبّتَ نظرته في التمثال.

من بين كلّ التكريم والتوظيف والذكرى التي حظي بها اسمُ همنغوي وشخصيته في كوبا، كان كونده يرى في تمثال البرونز النصفي ذاك التكريمَ الوحيدَ الذي ينطوي على معنى حقيقي، مثله مثل أيّة جملة خبريّة بسيطة تعلّم همنغوي كتابتها أيام كان صحفيّاً مستجداً في كنساس ستي ستار. ولذلك كان يستغرب أن تستمر بطولة صيد سمك الخرمان، وكانت من أفكار الكاتب نفسه، بعد وفاته. وكان يستغرب أن يحمل ذلك النشاط المتكلّف اسمه. وكم كان مغشوشاً ورديءَ المذاق ذلك الدايكيري «بابا دبل»[8]، الذي تناوله مرّة في «فلوريديتا»، على قلّة ذات يده، فلم يجد فيه إلا شراباً اخترعه همنغوي وفق وصفة طبية وصفت له، ثمّ زاد طينه بلّة حين استغنى فيه من كمية السكر التي كانت كفيلة بأن ترسم الحد الفاصل بين كوكتيل

8– كان جميع من عمل في خدمة همنغوي يدعونه «بابا»، ومن هنا تسمية الشراب بهذا الاسم.

جيد الإعداد ورون سيئ الخلط. وما أتفه ما بدت له فكرة إنشاء منتجع «مارينا همنغوي» الخلاب ليمضي فيه أغنياء العالم وبرجوازيوه الوسيمون، لا الكوبيون القذرون من ساكني الجزيرة (لمجرد كونهم كوبيين وما زالوا يعيشون في الجزيرة)، أوقاتهم مستمتعين باليخوت والبلاجات والشراب والطعام والجنس والشمس، الشمس التي تحمّص البشرة وتمنحها لوناً جذاباً، لا تلك التي تحرق الدماغ في حقول القصب. كم بدا له ذلك غريباً، بل مهيناً. حتّى متحف مزرعة «بيخيّا»، الذي لم يزره منذ سنوات طويلة، وجده وكأنّه أعدّ إعداداً لما بعد الموت... والخلاصة، فإنّ ساحة «كوخيمار» الصغيرة تلك، بالتمثال النصفي البرونزي المقام على حجر من الكونكريت المتآكل بالملح، كانت الشيء الوحيد الذي يحمل معاني البساطة والصدق: فقد كان أوّل تكريم أقيم للكاتب بعد وفاته، أوّل تكريم في العالم، وإن أغفل كتّابُ سيرته الإشارة إليه. التكريم الصادق الوحيد، لأنّ من أقامه هم صيادو «كوخيمار» الفقراء... أنفقوا عليه من جيوبهم وطافوا أرجاء هافانا ليجمعوا النقود اللازمة لصنعه. حتى النحّات لم يتقاض أجراً عن عمله. أولئك الصيّادون، الذين تنازل لهم عن صيده، حين ساءت أحوال البحر وعزّ الصيدُ عليهم، والذين أوجد لهم عملاً حين صُوّر فيلم «الشيخ والبحر» في منطقتهم، وأصرّ على أن يُدفع لهم أجر مجزٍ، والذين شرب معهم البيرة والرون ودفع ثمن ما شربوا من جيبه، والذين استمع إليهم، صامتاً، وهم يتكلمون عن أسماك عظيمة، فضيّة وشبقة، اصطادوها في مياه النهر الأزرق العظيم الدافئة أولئك الصيادون هم الوحيدون الذين يشعرون بما لن يستطيع أحدٌ في العالم أن يشعر به: لقد فقدوا فيه، يوم مات، الصديق والرفيق، وهو ما لم يكنْه همنغوي بالنسبة إلى الكتّاب أو الصحفيين أو مصارعي الثيران أو الصيادين البيض في أفريقيا، بل حتى بالنسبة إلى رجال الميليشيات الإسبان أو أولئك الفرنسيين، الذين دخل على رأسهم إلى باريس لينفذ عملية تحرير فندق «ريتز» من سيطرة النازيين... عند تلك القطعة البرونزيّة يسقط كلّ الزيف من حياة همنغوي، مهزوماً أمام إحدى أنصع حقائق أسطورته، أمّا مردّ إعجاب كونده بالتكريم، فليس هو الكاتب، الذي يكاد لا يعرفه، بل هم الرجال الذين صنعوه بمشاعر حقيقية يندر وجودها في العالم.

– أمّا الأسوأ في الأمر – أضاف رجل الشرطة السابق– فهو أنّ السافلَ ما زال يمسّني هنا– وأشار إلى نقطة غير محددة في صدره.

***

لو أنّ مس ماري[9] كانت في البيت، ليلة الأربعاء تلك، لامتلأ البيتُ بالمدعوين كما جرت العادة ليلة كلّ أربعاء، ولما تسنّى له أن يعبّ كلّ ذلك النبيذ. مؤكّد أنّ قليلين كانوا سيحضرون العشاء، فقد صار صاحبنا مؤخراً يؤثر الهدوءَ والحوار مع صديقين من أصدقائه، بعد أن أطلق كبده صرخة إنذار وتحذير من كثرة ما عبّ من الكحول طوال سنوات، حتّى صارت المأكولات والمشروبات ترِدُ على رأس قائمة من الممنوعات والمحرمات تزداد في طولها، وتزيد من معاناته. لكنّ دعوات أمسيات الأربعاء ظلّت طقساً من الطقوس، وظلّ هو يفضّل أن يمضيها مع رفيقه القديم، أيام الحرب الإسبانية، الطبيب فرّير ماچوكا، ومع المثيرة ڤاليري، الشابة الإيرلندية الرقيقة الحمراء، التي اتّخذ منها مساعدة شخصيّة، تجنباً للوقوع في غرامها، بعد أن أقنع نفسه بوجوب الفصل بين شؤون العمل وشؤون القلب[10].

سافرت زوجته على جناح السرعة إلى الولايات المتحدة للتعجيل في إجراءات شراء قطع أراض في «كيتشوم». وشاء هو أن يستمتع، ولو لأيّام، بالإحساس اللاذع اللذيذ بالوحدة. وإن باتت الوحدة عنده قريبة الشبه بالشيخوخة، بعد أن كانت مناسبة للعمل المثمر. صار يستيقظ كلّ صباح، مع شروق الشمس، ليعمل، كما كان يفعل في الأيام الخوالي، بجدّ واجتهاد، على آلته الكاتبة، وقوفاً على قدميه، بمعدّل يتجاوز ثلاثمئة كلمة في اليوم الواحد، على الرغم من أنّ الحقيقة التي كان يطاردها في تلك القصّة الدقيقة، التي أسماها «جنّة عدن»، كانت تبدو له، يوماً بعد يوم، بعيدة المنال. لم يكن قادراً على الاعتراف لأحد بأنّه لم يعُد إلى تلك الحكاية، التي ولدت قبل عشر سنوات قصّة قصيرة ثمّ نمت بسرعة، إلا بعد أن وجد نفسه مضطراً

9– يقصد ماري ويلش (1908–1986) الكاتبة والصحفية الأمريكية التي أصبحت عام 1946 زوجته الرابعة.

10– تزوجت ڤاليري دامبي سميث (1940) عام 1966 من ابنه غريغوري.

إلى التوقف عن العمل في *موت في الظهيرة*، وإلا بعد أن يئس من العثور على طريقة أخرى لاستثمار وقته. وراح ينفض الغبار الذي علق بالحكاية القديمة، التي تدور حول مصارعة الثيران وفلسفتها، وبدأ بمراجعة معمقة لطبعة جديدة خطط لها، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ ذهنه بات بطيء الاستجابة، بل لقد اضطر، غير مرّة، إلى التحقق من أفكاره، بعصر ذاكرته أو بمراجعة نص كفيل بتوضيح بعض تفاصيل عالم مصارعة الثيران ذاك، الذي عرفه وخبره، على مدى ما حمله لإسبانيا من عشق طويل.

صباح ذلك الأربعاء، الثاني من أكتوبر من عام 1958، بلغ ما كتبه ثلاثمئة وسبعين كلمة، ولكنه لم يبلغ ما قطعه سباحة، حتّى منتصف النهار، إلّا مسافة يخجل من ذكرها، لما بينها وبين مسافة الميل، التي كان يقطعها يومياً قبل ثلاث سنوات أو أربع، من فرق. بعد الغداء أمر سائقه أن يأخذه إلى «كوخيمار» ليزور صديقه القديم روبيرتو، قبطان «*البيلار*»، ويبلغه بعزمه على الخروج إلى الخليج نهاية الأسبوع للصيد، ولكي يمنح ذهنه المتعب قسطاً من الراحة. وفي المساء، استطاع أن يقهر رغباته القديمة ويعود إلى بيته دون أن يعرّج إلى حانة «فلوريديتا»، فما عاد قادراً على الدخول إليها ولو لتناول جرعة واحدة.

في العشاء تناول قطعتين من سمك الخرمان المشوي مع شرائح من البصل الأبيض الحلو وطبقٍ من الخضار المتبلة بعصير الليمون والزيت الأخضر الإسباني. وعند التاسعة، طلب من راؤول أن ينظف الطاولة ويغلق الشبابيك قبل انصرافه. كان على راؤول أيضاً أن يصعد إليه بزجاجة الـ«كيانتي»، التي كان تلقاها في الأسبوع السابق. صحيح أنّه فضّل، في الغداء، أن يشرب «بالديپنياس» خفيفاً ومنكّهاً، لكنّ مزاجه مع العشاء لم يكن ليرضى من مذاق ذلك الشراب الإيطالي الجاف القوي.

حين نهض من الطاولة، أحسّ بحركة في بابِ المدخل، ورأى كاليستو يطلّ برأسه منه. لطالما استغرب أن يرى كاليستو، الأكبر منه سناً، والذي أمضى خمسة عشر عاماً من حياته في السجن، أسود الشعر فاحمه.

– يمكن أن أدخل، إرنستو؟ – سأل الرجل، فردّ عليه بإشارة من يده. اقترب كاليستو عدة خطوات ونظر إليه–. كيف حالكَ اليوم؟

– بخير. أظنّ أني على ما يرام– وأشار إلى الزجاجة الفارغة على الطاولة.

– هذا شيء يسعدني.

كاليستو هو العامل الذي تجده في كلّ مكان، لأنّه يتقن كلّ صنعة: يعمل مع الجنايني إن احتاج الجنايني إلى من يساعده، ويحلّ محلّ السائق إن غاب السائق أو أخذ إجازة، ويعاون النجار أو يصبغ جدران البيت مع الصبّاغ. أمّا في تلك الأيام، فقد كلّفته مس ماري – هكذا كان الجميع ينادي السيدة همنغوي، كما يناديها زوجُها– بحراسة المزرعة ليلاً، ولكي لا يبقى مالكُها وحيداً في البيت. ولم يكن ذلك التكليف إلا تأكيداً على أنّ الزوجة باتت ترى أنّ زوجها قد هرم وشاخ، وإلّا، فما معنى ذلك؟ كان، هو وكاليستو، قد تعارفا قبل ثلاثين سنة، أيام كان هذا يهرّب الكحول عن طريق «كايو ويسو» ليبيعه إلى جو روسيل. ولطالما عبّا الشراب معاً في «سلوبي جوي» وفي بيته في «الكايو». كان يعجبه الاستماع إلى حكايات ذلك الكوبي الضخم صاحب العينين السوداوين، الذي عبرَ، أيّام قانون منع الكحول[11]، قناة فلوريدا أكثر من مائتي مرّة ليدخل الرون الكوبي إلى جنوب الولايات المتحدة والفرحة إلى قلوب الكثيرين. ثمّ انقطع لقاؤهما. وحين بدأ هو بزيارة هافانا والتجوّل سائحاً في شوارعها، بلغه أنّ كاليستو أودع الحبسَ متهماً بقتل رجل أثناء شجار بين مخمورين في أحد البارات. حين خرج هذا من السجن، عام 1947، التقاه صدفة في شارع «أوبيسبو» وعلم بالضائقة التي كان يمرّ بها، فعرض عليه أن يشغّله عنده وهو لا يدري أين سيشغّله. ومنذ ذلك الحين، صار كاليستو يلفّ ويدور في المزرعة وفي البيت، ويفعل كلّ ما من شأنه أن يحلل راتبه ويردّ الجميل الذي للكاتب برقبته.

– سأشرب قهوة. هل تريد أن آتيكَ بفنجان؟ – سأل كاليستو وهو يتوجه نحو المطبخ.

– لا. اليوم لا أريد. سأشرب نبيذاً.

11– طبّق قانون منع صناعة الكحول والمتاجرة به بين 1920 و1933، بقصد الحدّ من الإفراط في تعاطي الكحول من جهة، وزيادة وارد الضرائب المفروضة على الرخص، من جهة أخرى.

- لا تسرفْ في الشرب، إرنستو- قال الرجل من الغرفة الأخرى.
- لن أفرط. واذهبْ إلى الجحيم بنصائحك، أيّها السكير التائب...
عاد كاليستو إلى الصالة وبين شفتيه سيجارة ينبعث منها الدخان. ابتسم وهو يكلّم سيّده.
- ألا تذكر أنّي، أيّامَ «كايّو ويسو» الهائمة، كنتُ أتغلّب عليك دائماً بالرون وبالفودكا؟
- ما عاد أحد يذكر ذلك، وأنا أقلّ منكم بالطبع.
- أنتَ كنتَ تتغلّب عليّ في شرب الجن... شراب المخنثين.
- نعم، هذا ما كنتَ تقوله حين تبول على نفسك من كثرة الشرب...
- حسنا. أنا ذاهب. سآخذ كوباً من القهوة. - قال. هل أقوم بالجولة التفتيشيّة؟
- لا. سأقوم بها أنا.
- سأراك لاحقاً؟
- نعم. نلتقي فيما بعد.
لو أنّ مس ماري كانت في البيت، لتناولا العشاء معا ولتبادل أطراف الحديث معها قبل أن يجلس ليقرأ، صفحات قليلة من أحد الكتب - ربّما الطبعة التي وصلته أخيراً من كتاب الكبد وأمراضه، لكاتب يدعى أج. بي. همسوورث، الذي يقدم توضيحاً لآلام كبده وعواقبها الوخيمة. لجلس يقرأ وفي يده الكأسُ المسموح له بها، وهي في العادة ممّا فاض من نبيذ العشاء. ولراحت مس ماري، ربّما، تلعب الورق مع فيرّير وڤاليري، بينما هو في صمته يستمتع بتأمّل تلك الفتاة، قبل أن تحتال مس ماري لاصطحابها بدعوى حاجتها إليها في بعض الإجراءات القانونيّة والمصرفيّة التي يتحتّم إجراؤها في نيويورك. الأسدُ العجوز هو في النهاية أسدٌ. لكنّه لن يقوى، بعد النبيذ والقراءة، على السهر، فلا يلبث أن ينسحب بعد أن يتمنّى للساهرين ليلة سعيدة ويترك فيرّير وڤاليري ومس ماري في الصالة، حتّى صار معروفا لدى الجميع أنّ بابا يخلد إلى النوم عند الحادية عشرة، سواء أقام بجولته التفتيشيّة أم لم يقم بها... ما أثقل الروتين: تكرارٌ وطقوسٌ وانتظارُ كلّ ما هو مألوف. رأى في ذلك بوادر شيخوخة مبكرة، حتّى صار يجد متعته في

التفكير بمسؤوليته تجاه أدبه وناشريه وقرائه، وهو تفكير لازمه أثناء سنواته في باريس ، حين لم يكن يعرف من سينشر كتبه ومن سيقرأها، وحين كان يجاهد مع كلّ كلمة وكأنّ في ذلك حياته.

- نبيذك، بابا.

- شكراً، بنيّ.

فوق البار الصغير، بالقرب من الكرسي، وضع راؤول زجاجة نُزعت فلّينتها وكأساً نظيفة من زجاج منقوش. لقد أَلِفَ راؤول تقديم النبيذ له منذ عام 1941، حين استقرّ المقام بصاحبنا في بيته مع زوجته الثالثة، مع ذلك، لم يكن ينطق بكلمة عن النبيذ، وكان هو يعرف أنّ لسان خادمه لن يخونه أمام مس ماري. كان إخلاص راؤول له يَعْدِلُ إخلاص كاليستو، وإن أضيف إليه مكوّن هو من طبع الكلاب: الهدوء والتحفظ. إنّه أقدم عمّاله، وهو المفضّل لديه على سواه، لأنّه الوحيد الذي كان يقول له «بابا» صادرة عن شعور حقيقي. فعلاً. لقد كان الكاتبُ بمنزلة الأب له في جوانب كثيرة.

- بابا، هل أنتَ متأكّد من أنّك تريد البقاء وحدك؟

- نعم، راؤول، لا تقلق. هل أطعمتَ القطط؟

- نعم، دولورِس حملتْ لها سمكة وأنا أطعمتُ الكلاب. *بلاك دوغ* هو الوحيد الذي لم يشأ أن يأكل، يبدو متوتراً. قبل قليل كان ينبح هناك. نزلتُ إلى المسبح لكنّي لم أرَ أحداً.

- سأطعمه أنا. فهو معي يأكل دائماً.

- صحيح، بابا.

أخذ راؤول بيّارّوي الزجاجة وملأ نصف كأس من النبيذ. كان صاحبنا علّمه أن يترك الزجاجة مفتوحة لدقائق قبل صبّ النبيذ لكي يتنفّس الشراب ويستقر.

- من سيقوم بالجولة؟

- أنا. لقد أبلغتُ كاليستو بذلك.

- هل تريد فعلاً أن أنصرف وأتركَكَ وحدك؟

- نعم، راؤول، لا تقلق. سأتصل بك إن احتجت شيئاً.

- لا تتردد في الاتصال بي. على أيّة حال، سأقوم بجولة أخرى لاحقاً.

– أنتَ مثل مس ماري...اطمئنْ، فأنا لستُ بالعجوز العاجز.
– أعرف ذلك، بابا. حسناً، نم جيداً. غداً سأحضر الساعة السادسة لأُعدّ لك الفطور.
– ودولورِس؟ لماذا لا تعدّه هي، كالعادة؟
– حين تغيب مس ماري، عليّ أن أحضر أنا.
– حسنا، راؤول، كما تشاء، تصبح على خير.
– تصبح على خير، بابا. هل أعجبك النبيذ؟
– إنّه ممتاز.
– هذا شيءٌ يسعدني. أنا ذاهب. طابتك ليلتك، بابا.
– طابت ليلتك، بنيّ.

فعلاً، فما ألذّ ذلك «الكيانتي»، الذي أهدته إيّاه أدريانا إيڤانسيتش[12]، النبيلة الفينيسيّة الشابة التي أغرم بها من سنوات وحوّلها إلى «ريناتا» في رواية عبر النهر وبين الأشجار. ويا لمذاقه الذي يذكّره بطعم شفتيها، فيريحه ويخفف عنه الشعور بالذنب كلّما أفرط في الشراب وأسرف.

إن أراد أن يعيش فلا شرابَ ولا مغامرات. هذا ما قاله له فيرّير والأطباء الآخرون. فضغطه مضطرب، والسكّر المستجدّ قد يتفاقم ويشتدّ، والكبد والكليتان لم تشفَ تماماً من حوادث الطائرات التي تعرض لها في أفريقيا، وقد يضعف نظرُه وسمعُه إن لم يلتفت إليهما. فما عاد إلّا جراباً من العلل والممنوعات. وماذا عن مصارعة الثيران؟ لا بأس، شرطَ ألّا يفرط. لكنّ عليه أن يعود إلى ساحة المصارعة وإلى أجواء المصارعة لينتهي من رواية *موت في الظهيرة*، التي طالت قصتها وعرضت. عبّ الكأس وصبّ أخرى. ذكّره صوت انصباب النبيذ الأحمر في الكأس بشيء لم يتبيّنه، لكنّه على صلة بإحدى مغامراته. فأيّة مغامرة عساها تكون؟ وسرعان ما تكشّفت أمامه حقيقة مفزعة، أحسّ بها، لكنّه حاول ألا يفكر فيها: إن لم يستطع أن يغامر ولا أن يتذكّر، فعن أي شيء ستكتب أيّها الفتى؟

12– . Adriana Ivancich (1930–1983). إيطالية من أسرة نبيلة. تعرّف عليها همنغوي وأغرم بها أثناء زيارته إلى إيطاليا عام 1949.

يصرّ كاتبو سيرته والنقّاد على أن يبرزوا ميله إلى ركوب المخاطر وخوض الحروب والسير على شفير الهاوية وإغواء القدر. بل لقد عدّه بعضُهم رجلَ أكشن في مسوح كاتب، ورآه آخرون مهرّجاً مهووساً بعروض غريبة أو خطيرة لتضفي على ما يكتبه الفنّان صدى وذيوعاً. لكنّ الجميع أسهموا، مادحين أو قادحين، في أن تتحوّل سيرته، التي صنعها بنفسه، إلى أسطورة. أسطورة من أفعالٍ ومآثرَ عمّت أرجاء المعمورة وسمع بها القاصي والداني. لكنّ الحقيقة، كالعادة، أكثرُ تعقيداً وأشدّ فظاعة: لولا سيرتي ما كنتُ سأصبح كاتباً، قال لنفسه، وتأمل النبيذ بعد أن رفع الكأس أمام الضوء من دون أن يعبّ ما فيها. هو يعرف أنّ خياله فقيرٌ وكاذبٌ، وأنّ كتبه، المفعمة بالواقعيّة، كما أراد هو لأدبه، لم تؤسّس إلا على ما رآه وعاشه وتعلمه من الحياة. فمن دون بوهيميّة باريس ونزالات مصارعة الثيران ما كان له أن يكتب ثمّ تشرق الشمس، ولولا جراح «فوسالتا» ومستشفى ميلانو وحبّه الجارف لآغنس فون كوروسواسكي[13]، ما ولدتْ في رأسه وداعاً أيّها السلاح. ومن دون سفاري 1934 والخوف الذي تملّكه حين اقترب منه الموت محمولاً على قرن جاموس جريح، ما كان في مقدوره أن يكتب تلال أفريقيا الخضراء ولا اثنتين من أجمل قصصه: حياة فرانثيس ماكومبير القصيرة السعيدة وثلوج كلمنجارو. من دون «كايّو ويسو» و*الپيلار* و«سلوپي جوز» وتهريب الكحول وبعض الحكايات التي رواها له كاليستو، ما ظهرت روايته أن تملك وألا تملك. ومن دون الحرب الأهليّة الإسبانيّة ودويّ القنابل وصراع الأشقّاء وشغفه بالقاسية مارثا غيلهورن[14] ما كان له أن يكتب الطابور الخامس ولا لمن تقرع الأجراس. ومن دون الحرب العالمية الثانية ومن دون أدريانا إيڤانسيتش[12] ما كان لرواية عبر النهر نحو الأشجار من وجود. ومن دون أيّامه في الخليج وأسماك الخرمان التي اصطادها

13- في Fossalta ألقى النمساويون قنبلة يدوية قتلت جندياً وأصابت متطوع الصليب الأحمر الأمريكي الشاب إرنست همنغوي، في تموز 1918. Agnes Von Kurowsky (1892–1984) ممرضة أمريكية في مستشفى (ميلانو)، حيث عولج همنغوي من جراحه. وقد جسّدت شخصيتها في رواية وداعاً أيّها السلاح كاترين باركلي.

14- . Martha Gelhorn (1908–1998). كاتبة وصحفيّة أمريكية وإحدى أهم المراسلات الحربيات الأمريكيات. زوجة همنغوي الثالثة (1940–1945).

وقصص أسماك أخرى فظيعة سمعها من صيّادي «كوخيمار» ما كان لرواية الشيخ والبحر أن تبصر النور. من دون شلّة الصعاليك الذين رافقوه للبحث عن الغوّاصات النازيّة[15]، من دون مزرعة «بيخيّا» ومن دون «فلوريديتا» والشراب الذي عبّه فيها والشخصيات التي قابلها هناك، ومن دون الغواصات الألمانية التي كان هناك من يزودها بالوقود في كوبا، ما كان ليكتب جزرٌ في الخليج. وماذا عن باريس حفلة؟ وماذا عن *موت في الظهيرة*؟ وماذا عن حكايات نيك آدمز؟ وماذا عن قصّة جنّة عدن الملعونة، تلك التي استعصت عليه وطالت وضاعت وأضاعته معها؟... نعم، هو يعرف: عليه أن يعيش حياته ليصنع أدبه، عليه أن يكافح وأن يقتل وأن يصيد وأن يعيش لكي يستطيع أن يكتب.

– لا، عجباً، لم أصنع حياة لي– قال بصوت عال ولم يعجبه صوته، وسط كلّ ذلك الصمت. وأفرغ آخر قطرة من النبيذ في جوفه.

سار، وهو يحمل زجاجة «الكيانتي» تحت إبطه والكأس في يده، حتّى نافذة الصالة، ونظر صوب الحديقة وصوب الليل. حدّق حتّى شعر بألم في عينيه، إذ كان يحاول أن يرى في الظلام، كما تفعل السنوريات الأفريقيّة. لا بدّ أن هناك ما هو أبعد ممّا يرى، أبعد من البديهي المنطقي، لا بدّ أنّ هناك ما هو قادر على إضفاء سحر على سنوات حياته الأخيرة، إضفاء فتنة: لا يمكن أن يكون رعب الممنوعات والأدوية، رعب النسيان والتعب، رعب الآلام والروتين هو كلّ ما بقي. لأنّ معنى ذلك هو أنّ الحياة انتصرت عليه، غلبته، مزقته، لم ترحمه، هو بالذات، الذي طالما فكّر أنّ الإنسان قد يُدمّر لكنّه لن يُهزم. كلام فارغ: بلاغة وكذب، فكّر. صبّ كأساً أخرى.

إنّه محتاج إلى الشرب. كلّ شيء يشير إلى أنّ تلك ستكون ليلة ليلاء.

ولم يدرك، إلا بعد سنتين، أنّ تلك الليلة كانت بداية النهاية لحياته. لو كانت مس ماري في البيت، ليلة الأربعاء تلك، لما شهدت تلك الليلة انطلاق صافرة البداية لنهاية حياته.

***

15– يشير إلى المهمة التي نفذها همنغوي ومجموعة من المتطوعين لإغراق الغواصات الألمانية التي كانت تجوب خليج فلوريدا أثناء الحرب العالمية الثانية.

مكتبة
t.me/t_pdf

-2-

فوق الباب الخشبي القديم عُلّقتْ يافطة وسخة ملطخة كتب عليها بحروف مطموسة: مغلق لدواعي الجرد. نأسف لإزعاجكم. من أيّة داهية جاؤوا بذلك؟ تساءل كونده. واستغرب أكثر حين فكّر بمعنى ما كُتب على اليافطة الأصليّة التي أمر همنغوي بتعليقها على ذلك الباب نفسه في مزرعة «بيخيّا»: لا نستقبل الزوّار غير المدعوين. هكذا، بوضوح، وبالإنكليزيّة، فكأنّ الزوّار الوحيدين المسموح لهم بالوصول إلى تلك الناحية البعيدة من دون دعوة هم من الناطقين بالإنكليزية. وماذا عن الناطقين بلغات أخرى؟ هل هم دوابّ؟ دفع كونده باباً من أبواب المزرعة التي باتت متحفاً، وبدأ بالصعود نحو البيت الذي أقام فيه الكاتب ناعماً بشهرته أطول سنوات حياته، شهد مرور العديد من أشهر رجال العصر وأجمل نساء القرن.

حين وطئت قدمُه بقعة الأدب الحميمة تلك، التي تبدأ بشجرة مانجو ونخلات وجدت، بلا شك، قبل أن يوجد البيت، تملك ماريو كونده إحساسُ مَن يعود إلى ركن حرام من ذاكرته، ركنٍ كان يتمنّى لو أبقى عليه ممنوعاً، تحت حراسة شوق لذيذ وحنينٍ دفين. مرّ أكثر من عشرين سنة على آخر زياراته – من دون دعوة، طبعاً– لذلك المكان الذي صعد إليه عشرات المرات، في طقوس تكاد تكون مهيبة احتفاليّة. كم باتت بعيدة تلك الأزمنة! أيّام كان يطمح أن يكون هو أيضاً كاتباً. أيّام كانت أسطورة نمر الجبل العجوز[16]، مع قصص الحرب والصيد والقصص المشحوذة

16– في مجموعة همنغوي القصصية «ثلوج كلمنجارو»، يلقى النمر مصيره المحتوم في قمّة الجبل الثلجية.

كالسكاكين والروايات المشحونة بالحياة، بحواراتها البسيطة في ظاهرها، والعميقة أيضا، تقدّم النموذج لما يمكن أن يكون عليه الأدب، ولما يجب أن يكون عليه رجل عاش بهذا الأدب ومن أجل هذا الأدب. ما أكثر ما قرأ في تلك الأيام، وما أكثر ما أطلّ برأسه من نافذة البيت الهافاني، الذي حوّل إلى متحف بعد قليل من وفاة ساكنه، باحثاً عن روح الرجل بين الجوائز الصغيرة والكبيرة التي أحاط بها نفسه على مدى سنوات.

من بين كلّ زياراته تلك، في أيام لا يمكن إلّا أن توصف بأيام الزمن الجميل، يتذكّر كونده بحنين خاص تلكَ التي قام بها مع أصدقاء الثانويّة العامة. تفاصيلُ دقيقة ما زالت عالقة في ذهنه: كان صباحَ سبت. التقينا عند درج المدرسة: كارلوس الفلاكو، وكان وقتها ما زال نحيفاً، كما يشير إلى ذلك لقبه؛ ودولثيتا، خطيبته؛ وأندريس، وكان لاعبَ بيسبول جيداً، يحلم بأن يصبح طبيباً، ولم يفكّر يوماً بالرحيل عن كوبا؛ والكونيخو، المهووس بإعادة كتابة التاريخ؛ وكانديتو الأحمر، بمظهره الأفريقي المشعّ، وفلسفته التي تجعله يحمل ليترين من الرون في حقيبة ظهره؛ وتمارا، الجميلة حدّ الوجع، وكانت، حينها، حبّ حياة ماريو كونده وحبّ موته. كان مرافقو الكاتب المستجدّ في تلك الزيارة وحاشيته هم خيرة أصدقائه القدامى. إنّه ما زال يتذكّر باستمتاع كم فُتنتْ تمارا بجمال المكان، وكم كانت سعادة أندريس وهو يتطلّع إلى هافانا من أعلى البيت، وكم استاء الكونيخو من كثرة جوائز الصيد التي علّقت على الحائط، وكيف تساءل كانديتو الأحمر، وهو يستحضر صورة بيته الصغير، أنّى يكون لرجل واحد بيتٌ كبير كذاك. يتذكّر أيضاً، بمزيج من ألم وفرح، كيف أنّ كارلوس ودولثيتا انفصلا عن المجموعة واختفيا، ليخرجا، بعد نصف ساعة، من بين الأحراج، منشرحين مبتسمين، بعد أن أنجزا ما كان في نظرهما آنذاك أولى أولويّات الحياة: التضاجع كلّما سنحت فرصة للتضاجع. كان صباحاً رائقاً جمع فيه كونده، الجريء العارف، والمغرم بالكاتب، أصدقاءه حول المسبح وقرأ عليهم، وهو يدور عليهم بالرون، قصّة النهر الكبير ذو القلبين كاملة، وهي قصّته المفضلة من بين كلّ ما كتبه همنغوي.

حاول كونده، وهو يصعد الطريق الذي ظلّلته أوراق النخيل والسيبا

والكزوارينة والمانجو المتشابكة، أن يتخلّص من تلك الذكرى الحلوة المرّة التي تلحّ عليه وتذكّره بحقيقة أن الزمن والحياة قادران على القضاء على كلّ شيء تقريباً، لكنّه لم يفلح في التخلّص منها إلّا حين استطاع أن يميّز، بعد جهد، هيكلَ البناء الأبيض والبرج الذي كانت ماري همنغوي أمرت ببنائه ليكون مكان عملٍ لزوجها، ثمّ انتهى به المطاف ملجأً للقطط السبع والخمسين التي تستوطن المزرعة. على يساره، خلف الوهدة التي يقوم عندها المسبح، حاول أن يلمح جانباً من صورة *البيلار*، الذي أخرج من الماء قبل ثلاثين سنة ليصبح هو الآخر قطعة من القطع المعروضة في المتحف. بدا البيت، بأبوابه وشبابيكه المغلقة، من دون سيّاح ولا فضوليين ولا تلامذة ولا قاصين يطلّون برؤوسهم على عالم الكاتب الجامد، شبحاً أبيض، خارجاً من عالم الأموات. لكنّ كونده لم يتوقف ليتأمله إلا لحظة، ثمّ واصل طريقه سالكاً الدرب الإسفلتي الضيّق المؤدي إلى الجزء العلوي من المزرعة، من حيث صارت تصل إلى مسامعه أصواتٌ وضجيجٌ مضطرب الإيقاع: إنّه نقر المعول وضرب الرفش ، اللذين راحا يستنطقان الأرضَ ويستجوبانها.

رأى، أوّل ما رأى، جذورَ شجرة المانجو الساقطة. بدت له مثل شعر ميدوسا[17]، الأشعث المتوحش، تهتف صوب السماء البعيدة التي جاءها منها موتٌ يوحي بموتٍ آخر. بُعَيْد ذلك المكان، وفي حفرة بعمق أمتار، بدت له رؤوسُ ثلاثة رجال، ترتفع المعاولُ والأرفاشُ فوقها فيتطاير الترابُ منها ليكوّن جبلاً صغيراً مظلماً تهدّد بابتلاعه عين لم ينبع منها الماء منذ آلاف السنين. اقترب كونده بهدوء فتعرّف على اثنين من الثلاثة. إنّهما زميلاه القديمان في الشرطة: كريسپو والغريكو. كانا يحفران بالرفش ويخوضان في الحديث. لكنّه لم يتعرّف على الثالث، الذي كان يعمل نقراً بمعوله.

– آخر مرّة رأيتكما فيها كنتما أيضاً في حفرة.

التفت الرجلان وقد فوجئا بالصوت.

– في حفرة أمّك – قال الغريكو–، انظر مَن جاءنا هناك!

17– ميدوسا ضاجعت بوسيدون في معبد الإلهة أثينا فحولتها هذه إلى امرأة بشعة لها شعرٌ من ثعابين وعين تحيل كلّ من تنظر إليه حجراً.

توقّف رجل المعول هو الآخر عن الحفر وراح ينظر مستطلعاً إلى ذلك الرجل الذي كان صاحباه يكلمانه بعدما ألقيا بما بين يديهما.

– أرى أنّك قد عدتَ – قال كريسپو متعجباً وهو يحاول الخروج من الحفرة. كانت السنين قد مرّت عليهما بالسرعة ذاتها التي مرّت بها عليه، وها هما الآن شرطيان أربعينيان ومكرشان كان من حقّهما، ربّما، أن يكونا الآن مستلقيين في أحد البلاجات يتشمّسان.

– وهل أنا مجنون؟ – قال كونده وهو يمدّ لهما يده لمساعدتهما على الصعود.

– كم سنة مرّت، كونده؟ – نظر الغريكو إلى كونده فكأنّه يرى فيه قطعة من قطع المتحف.

– كثيراً! لا تعدّ.

– يا رجل! ما أسعدنا برؤيتك. مانولو قال لنا...

– ومن يكون ذاك الذي في الحفرة؟ – سأل كونده.

– إنّه نائب العريف فليتيس.

– نائب عريف بهذا العمر؟

– تصوّر، إنّه أعرج ومعه قصر نظر. يكتب الشعر، لكنّه سكّير وأيّ سكيّر...

– فهو محظوظ إذن أن وصل إلى نائب عريف– قال كونده، وحيّا فليتيس بإشارة من يده: فإذا كان نائب العريف فليتيس سكيّراً إلى ذلك الحد ونصف شاعر، كما يقولان، فهو من جماعته. وهل عثرتم على شيء؟

– لا شيء هنا، كونده – احتجّ كريسپو.

– هل كنتَ أنتَ من أوعز بحفر هذه الحفرة؟ – قال الغريكو موبّخاً.

– على رسلك: هذه شغلات مديرك. أنا هنا لا أحلّ ولا أربط.

– فهو إذن مانوليتو...يا له من مدير.

– قولا لي الآن: أخيرٌ أنا أم مانولو في الإدارة؟

تبادل الغريكو وكريسپو النظرات لحظة. وبدا أنّهما في شك. ثمّ تكلّم كريسپو.

– لا جدال في أنّ مانولو لطيف ومتفهم بالمقارنة معكَ– وضحك الاثنان.

– يا لكما من ناكري جميل جاحدين...

– اسمع، كونده، بما أنّك مطّلعٌ ونصفُ كاتب...– وضع الغريكو يده المتربة على كتف كونده ونظر بسخرية إلى نائب العريف فليتيس–، يقول صديقنا هنا إنّ خمنغواي[18] سدّد ذات يوم ركلتين إلى مؤخرة امرأته لأنّها قطعت، من دون إذنه، شجيرة في المزرعة هنا...هل هذا صحيح؟

– لم تكن ركلتين... كانت ثلاث ركلات وصفعة.

ابتسم نائب العريف فليتيس من مكانه، مفتخراً.

– ذلك الرجل كان مجنوناً – أكد كريسپو.

– صحيح، بعض الشيء... ليس كثيراً: أنا قرأتُ في أحد الكتب أنّ ركل الزوجة على مؤخرتها من حين إلى آخر من متطلبات الصحة الزوجيّة.

– هذا شيء معروف من دون قراءة – قال الغريكو.

– حسنا، فهنا إذن لا يظهر شيء؟

– بعد أن أخرجوا كلّ العظام وقطعة من القماش وما تبقّى من الحذاء، لم يبق غير الأحجار وجذور الأشجار.

– لديّ إحساس بوجود شيء آخر. انظروا. أشعر به هنا – ووضع إصبعه على جانب صدره الأيسر. عليكم أن تواصلوا البحث. ابحثوا إلى أن يظهر شيء.

– وإن لم يظهر؟ – ارتفع صوت نائب العريف من قاع الحفرة.

– المزرعة كبيرة. لا بدّ أن يظهر شيء– ردّ كونده–. سأذهب للقاء مدير المتحف. عليّ أن أدخل إلى البيت... بالمناسبة، من أين جئتم باليافطة المعلّقة هناك؟

– من محل البيتزا في البلدة. استعرناها منهم – أشار الغريكو.

– حسنا. سأراكم بعد أن تنتهوا من الحفر.

– اسمع، كونده – ناداه كريسپو–، من الأفضل لك ألا تعود إلى العمل في الشرطة.

18– هكذا يمثّل المؤلف طريقة الإسبان في نطق الهاء الإنكليزية وقلبها خاء.

ابتسم كونده وواصل تقدمه نحو كراج المزرعة القديم، حيث إدارة المتحف. قدّم المديرُ، وهو خلاسي يصغر كونده سنّاً، نفسه بأنّه خوان تينوريو. كان رجلاً دميماً لطيفاً ثرثاراً. حاول الشرطي المتقاعد منذ البداية الحدّ من ثرثرته، إذ حاول تينوريو، منذ البداية، أن يثبت كفاءته في إدارة المتحف، وراح يستعرض سعة اطلاعه وكلّ ما يعرفه عن همنغوي وعن «بيخيّا»، واقترح على الزائر أن يكون دليله، لكنّ كونده رفض العرض بألطف أسلوب وأوضح عبارة: تلك هي زيارته الأولى لبيت الكاتب من الداخل، وهناك مشكلة بينه وبين همنغوي، يحتاج إلى حلّها بهدوء، ومن دون شهود.

– الساعة الآن العاشرة... حتّى أيّة ساعة أستطيع البقاء هناك في الداخل؟– سأله كونده، بعد أن صارت مفاتيح البيت بحوزته.

– نغلق الساعة الرابعة. ولكن إن شئت حضرتك...

– لا. لا. سأخرج بسرعة. لكنّي لا أريد أن يزعجني أحد. ولا تقلق، فلن أسرق شيئاً. شكراً.

وأدار ظهره لمدير المتحف.

صعد كونده الدرجات الست التي تفصل طريق السيارات عن بسطة الدرج التي يقوم البيت عليها، وجرّ نَفَساً عميقاً. قطع الخطوات الست الأخرى التي تنتهي عند الباب الرئيس، وحشر المفتاح وفتح. وضع إحدى قدميه داخل البيت وفكّر أنّه إن وضع الثانية داخله فلن يكون في مقدوره أن يتراجع، وتمنّى لو أنّه غلق الباب وعاد أدراجه.

حرّك قدمه ومدّ ذراعه فعثر على مفتاح الإضاءة. ضغط عليه. عاد المشهد ينبسط أمام عينه، حزيناً، متوقفاً في زمنه. مشهدُ ما كان يوماً مّا بيتاً يضجّ بأشخاص ينامون فيه ويأكلون ويحبّون ويعانون. لكنّ المكانَ لم يفقد روحه وحيويته لمجرّد أنّه حوّل إلى متحف: فقد كان بيت «بيخيّا» على الدوام بمثابة محراب، أو مسرح أعدّ لا ليناسب الرجل بل ليناسب الشخصيّة. لقد صدم كونده منذ البدايةَ بآلاف الكتب وعشرات الرسوم واللوحات التي عرضت في تنافس محتدم مع بنادقَ ورصاص ورماح وحِراب، مع رؤوس هامدةٍ شكّاءة لوّامة، رؤوس ضحايا أفعال الكاتب وعروضه البطوليّة: جوائز

حازها عن استمتاعه بالقتل، عن إحساس صنعه هو من أجل أن يحيا حياة مليئة بالمخاطر والمغامرات.

لقد اختفت من البيت أثمن اللوحات. أخرجتها ماري ويلش من كوبا. واختفت بعض الوثائق والرسائل التي يقال إنّ الأرملة أحرقتها حين عادت للمرة الأخيرة إلى المزرعة، بعد وفاة الكاتب مباشرة؛ اختفى أيضاً الأشخاص القادرون على أن يمنحوا المكان حسّاً وواقعيّة: أصحابُه، خدمُه، ضيوفه المألوفون والمدعوون الخصوصيون، صحفيٌ من هنا وصحفي من هناك، قادر على تجاوز صفة «غير المدعو»، ليحظى بدقائق قليلة من الحديث مع الإله الحيّ للأدب في أمريكا الشمالية. واختفت القطط، تذكر كونده. أمّا ما اختفى حقاً فهو الضوء. فتح المحقق السابق نوافذ البيت، الواحدة تلو الأخرى، بادئاً بنوافذ الصالة وصولاً إلى المطبخ والحمّام، فأضفى نورُ الصباح الدافئ جمالاً على المكان، ونفذ عطرُ الزهور ورائحة التراب إلى البيت. وأخيراً سأل كونده نفسه عمّا يفعله هناك. إنّه لا يبحث عن خيطٍ يقوده إلى هويّة القتيل، ولا عن دليل مادي على تهمة القتل. إنّه يبحث عن شيء آخر، أبعدَ وأهمّ، شيء بحث عنه قبل سنوات ثمّ توقّف عن طلبه والبحث عنه: إنّه يبحث عن حقيقة رجل اسمه إرنست ميلر همنغوي. أو ربّما، عن كذبة حقيقيّة تحمل ذلك الاسم.

في محاولة الفهم الصعبة تلك، بدأ كونده بفعلٍ انتهك فيه حرمة المتحف: نزع حذاءه وحشر قدميه في خفّي الكاتب، وهما أكبر من قياس قدميه بعدة أرقام. وعاد إلى الصالة يجرجر قدميه. أشعل سيجارة وجلس على كرسي الرجل الذي كانوا يدعونه «بابا». وراح يأتي، عن وعي واستمتاع، بتلك الأفعال التدنيسيّة التي لم يتصوّر يوماً أنّه سيفعلها، فبدأ بتفحّص اللوحات الزيتيّة التي تصوّر مشاهدَ لمصارعة الثيران. وتذكّر فجأة كيف أنّ حبّه للكاتب تراجع وانتهى حين كُشف النقابُ عن حقائق تتصل بالصداقة القديمة التي كانت تربط همنغوي بدوس پاسوس[19]. لكنّ مشاعر الإعجاب بهمنغوي لم تجفّ في قلبه دفعة واحدة. بل لقد بدأت المسافة تتشكّل حين راحت

19- John Roderigo Dos Passos (1896-1970). روائي وصحفي من أصول برتغاليّة.

الرومانسية تفسح مكاناً للشك و دأ معبوده الأدبي يتحوّل في نظره إلى كائن متعجرف وعنيف وعاجز عن مقابلة من يحبّه بالحب. وبدأت الشقة تتباعد حين وجد أنّ أكثر من عشرين عاماً من إقامة ذلك الكاتب العبقري بين الكوبيين لم تنفعه في فهم الجزيرة وتفهمها؛ وحين أدرك أنّه كان، في الوقت نفسه، رجلاً دنيئاً لا يتوانى عن خيانة من دعمه وساعده: من شيروود أندرسون، الرجل الذي فتح له أبواب باريس، إلى فيتزجيرالد سكوت المسكين. أمّا القطرة التي أفاضت الكأس فكان تصرفه القاسي والساديّ مع رفيقه القديم وصديقه جون دوس پاسوس أثناء الحرب الأهليّة الإسبانيّة، حين أصرّ هذا على التحقيق في موت صديقه الإسباني خوسيه روبلِس[20] فردّ عليه همنغوي، في اجتماع عام، بأنّ روبلِس أعدم لأنّه جاسوس ولأنّه خان قضيّة الجمهوريّة. ثمّ تجاوز، بخبث وتصميم، كلّ الحدود حين جعل من روبلِس مثلاً للخائن في روايته لمن تُقرع الأجراس... كانت تلك نهاية الصداقة بين الكاتبين وبداية تحوّل دوس سياسياً[21]، بعد أن علم بأنّ روبلِس، المطلع على الكثير من الخفايا والأسرار، سقط، شأنه شأن أندريو نين[20]، ضحيّة الإرهاب الستاليني الذي شهدته إسبانيا منذ عام 1936- كانت موسكو تشهد هي الأخرى محاكمات الرعب الشهيرة- بقصد تشديد قبضة السوفييت على معسكر الجمهوريين، الذين لن يلبث ستالين أن يخدعهم ويسلّمهم، في رقعة شطرنجه الجيو- سياسي، للفاشيين، لينصرف هو إلى أخذ حصته من كعكة بولونيا وليلتهم جمهوريات البلطيق. في تلك القصة الغامضة والمؤسفة، صوّر همنغوي دوس شخصاً جباناً، بينما أضفى على نفسه لبوس البطل: لكنّ الحقيقة سرعان ما ستتكشّف، ومع الحقيقة سنعرف كم استغلّ صنّاع الدعاية الستالينيّة همنغوي، وكم كيّف دهاقنة السياسة غروره الساذج على مرادهم. إنّ فم كونده ليمتلئ مرارة كلّما تذكر

20- José Robles و Andreu Nin ناشطان إسبانيان، الأول شيوعي والثاني كاتب وأكاديمي، قتلا في ظروف بداية الحرب الإسبانية (1937) ثمّ تبيّن أنّ الروس هم من اغتالوهما.

21- . إشارة إلى قطيعته مع الشيوعيّة بعد اتهام المخابرات السوفييتية بقتل صديقه خوسيه روبلِس عام 1937.

ذلك الفصل، بل إنّه ليتمنّى، وهو يقف وسط الأشياء الكثيرة التي اقتناها ذلك الرجل المستعد لقتل جميع كتّاب العالم حسداً، أو اصطادها أو تلقاها هدايا، لو أنّه عثر على أدنى خيط يقوده إلى اتهام همنغوي: وأيّ ضيرٍ في أن يكشف ذلك الكاتب، بعد كلّ ما قيل في حقّه، عن قاتل رخيص.

***

عند منتصف النهار، بدأ المطر ينهمر. من خلف النوافذ المغلقة والضوء المطفأ، أحسّ كونده بالجوع يهاجمه وبإغراء حرّ الصيف يستدرجه، فاستلقى على السرير في حجرة ماري ويلش[9] بانتظار انقطاع الوابل. كم من مغامرة شهد هذا السرير؟ وكم مرّة دنّس موظفو المتحف حرمته في مغامراتهم خارج بيوتهم ومع غير زوجاتهم؟ لم تتجاوز مهمته التفتيشيّة الساعتين، لكنّ الساعتين كانتا كافيتين لإقناعه بحاجته إلى معرفة المزيد حول قصّة العظام التي عثر عليها إن كان ينتظر من إحدى الأغراض أو الأوراق التي أمامه، أن تحكي لها قصتها مع همنغوي بلغة واضحة بيّنة. مع ذلك، فقد أثبت له بحثه ثلاثة أمور كانت موضع شكّ لديه كان يتوقع أن ذلك البيت يضمّ كتبا لها في سوق هافانا قيمة كبيرة، وقد صدق توقعه. وتأكد له، من ناحية أخرى أنّ في همنغوي قدراً من الماسوشيّة، إن صحّ ما يقال عن أنّه كان يكتب على آلة الرويال أرّو المحمولة وهو واقف، لأنّ الكتابة مهمة شاقة في حدّ ذاتها – كونده يعرف ذلك جيداً– فما بالك إن حوّلها إلى تحدٍ بدني، فضلاً عن كونها تحدياً ذهنياً. أمّا الاستنتاج الثالث فهو أنّ في همنغوي أيضا شيئاً من الساديّة، فتلك الرؤوس المقطوعة المعلّقة على الجدران، والتي تذكّر بمذاقِ دمٍ أريق عبثاً، وبعنفٍ صدر عن رغبة في العنف، لكفيلة بإثارة مشاعر التقزز تجاه من تسبب في كلّ ذلك الموت العبثي.

كان الوقت قريباً من الرابعة حين أيقظه قرعٌ على الباب. سار إلى الصالة كمن يسير في نومه، وهناك اصطدم بوجه مدير المتحف المتجهّم.

– ظننتُ أنّ شيئاً حدث لحضرتك.

– لا، لقد شعرت بالضجر فاستلقيت.

– وهل وجدتَ شيئاً؟

- لا أدري. هل توقف المطر؟
- يوشك أن يتوقف.
- ورجال الشرطة؟
- انصرفوا حين بدأ المطر. فقد صار المكان بحيرة.
- هل حضرتك ذاهب إلى هافانا؟
- نعم، إلى «سانتوس سواريث».
- هل يمكنكَ أن توصلني؟ - غامر كونده بالقول.

وكان خوفه في محلّه. لم يتوقّف تينوريو عن الكلام طوال الوقت: الواقع أنّه بدا مطلعاً على حياة همنغوي في كوبا، ولم يتردد إذ قدّم نفسه على أنّه «من المعجبين المطلقين بالكاتب». طبعاً، فما أحسن العيشَ معه ومنه، فكّر كونده. ثمّ تركه يتكلّم على سجيته، بينما راح هو يجمع المعلومات في رأسه المتعب من ضعف ومن نعاس.

- يهمّنا، نحن الهمنغوانيين الكوبيين، أن تتضح الأمور. أنا، على الأقل، متأكّد من أنّه لم يكن هو...

- الهمنغوانيون الكوبيون؟ ما هذا؟ أهو محفل ماسوني أم هو حزب سياسي؟

- لا هذا ولا ذاك: نحن أشخاص معجبون بهمنغوي. خليط من كتّاب وصحفيين ومعلمين وربّات بيوت ومتقاعدين.

- وماذا تفعلون؟

- نقرأ له وندرسه ونعقد جلساتٍ حواريّة حول سيرته.

- ومن يدير هذه النشاطات؟

- لا أحد... أنا أنظّم الناس، ولكن ما من مسؤول.

- إنّه الإيمان الخالص، من دون قساوسة ولا أمناء عامين.

- ليس إيماناً. بل لأنّه كان كاتباً كبيراً وليس ذلك الوحش الذي يصوّرونه. وحضرتك؟ ألستَ من حزبه؟

فكّر كونده قليلاً قبل أن يردّ:

- كنتُ من حزبه لكنّي تركتُه وأعدتُ بطاقة الانتساب.

- وهل أنتَ الآن شرطي أم لست شرطيّاً؟

– لا. أقصد أنّي ما عدتُ شرطياً.

– فماذا تفعل، إذن؟ إذا كان في الإمكان معرفة ذلك طبعاً.

– ليتني أعرف...أنا في الوقت الحاضر متأكّد ممّا لا أريد أن أكونه. وأحد الأشياء التي لا أريد أن أكونها هو العمل في الشرطة: لقد رأيتُ كثيراً من الأشخاص وقد أصبحوا أولاد قحبة بينما جوهر واجبهم هو محاربة أولاد القحبة. ثمّ. هلّ رأيتَ حضرتكَ ما هو أقبح من الشرطي؟

– هذه حقيقة – أقرّ تينوريو، بعد أن فكّر في ما قاله كونده قليلاً.

– وباعتبارك همنغوانياً مؤمناً، ما رأيك بهذه القصّة؟

– ما وقع لهذا الرجل يمثّل لغزاً. لكنّي متأكّد من أنّه لم يقتل. أعرف ذلك لأنّي تحدثتُ مع الكثيرين من الذين عاصروه وعرفوه. تكلمت مطولاً مع راؤول بيّارّوي، حين كان على قيد الحياة، ومع روبيرتو، قبطان *البيلار*، ومع توريبيو إيرناندِث، مربّي ديوكه...

– توريبيو إلتوثاو[22]؟ أما زال حيّاً؟ – سأل مستغرباً. فذلك الرجل، وفق حساباته وذكرياته عنه، ربّما ناهز المائتين، وربّما تجاوزهما.

– ما زال حيّاً. إنّه يحكي أشياء فظيعة عن همنغوي، لكنّه يكذب أحياناً ويهذر ويهذي... لقد وجدتُ، وأنا أتكلّم مع هؤلاء الناس، أنّهم يحملون عن همنغوي صورة أفضل من صورته التي كان عليها. فالجميع يؤكدون أنّه أحسن إليهم ذات مرّة. أعني هنا الكثيرين من أصدقائه. لقد أحسن إلى جميع الموظفين: غفر لبعضهم أخطاء خطيرة وسمح لهم بالعمل في المزرعة، ومدّ يد العون لآخرين مرّوا بأوقات صعبة. وكان يدفع لهم جيداً. لذلك كان جميع من عملوا معه تقريباً مستعدين حتّى للقتل إن طلب بابا منهم القتل.

– القتل؟

– لا أقصد القتل القتل، بل أقصد أيّ شيء يطلبه منهم...– انتبه المدير إلى أنّه ربّما تجاوز الحدّ، لذلك عدّل مسار حديثه–. ولكن نعم، أظنّ أنّ بعضهم كان مستعداً للتضحية بحياته من أجله.

22– El Tuzao ومعناه «المنتوف». في الفصل الثالث/ المقطع الثاني، يشرح سبب إطلاقهم هذا اللقب عليه.

– هذا يشبه فيتو كورليوني[23]. أصنع لكَ معروفاً لتصبح بعد ذلك من أعواني المخلصين. هذه طريقة من طرق شراء الناس.

– ليس هكذا.

– فاشرح لي، إذن...

– عندك راؤول بيّارّوي. حين وصل همنغوي إلى «بيخيّا» كان راؤول يتيماً متشرداً ميتاً من الجوع. فتبنّاه همنغوي وغيّر حياته وصنع منه إنساناً. ساعده على بناء بيت، وكان والدَ ابنته بالمعمودية...، وكان راؤول طبعاً يرى بعيني سيّده، وإن لم يكن الوحيد. روبيرتو ما زال يُكبره ويعظّمه، حاله حال الغاليثي فيرّير، طبيبه. توريبو نفسه، على الرغم من كلّ ما قيل، كان مستعداً لفعل أيّ شيء يطلبه همنغوي منه. ما علينا. كيف بدا لك البيتُ من الداخل؟

نظر كونده إلى الشارع، وكان ما زال مبللاً، وراح يدوّر في رأسه الطريقة التي استغلّ بها همنغوي صنيعه في الآخرين وكيف وظّف لمصلحته شعورَ هؤلاء بالجميل والدين. فعلاقة التبعيّة تلك يمكن أن تكون بداية تدبير خطير.

– هل سبق لكَ أن دخلتَ إلى هنا؟ – ألحّ تينوريو بالسؤال، ولم يشأ الانصراف قبل أن يحصل على جواب

– لا. كلّ شيء مشوّق– قال كونده تفادياً للإحراج.

– طبعاً، لم ترَ الأسلحة.

– لا. هي في البرج، أليس كذلك؟

– بلى. بعضها... وهل رأيتَ سروال آڤا غاردنر الداخلي؟[24]

أحسّ كونده بوخزة.

– سروال مَن؟

– آڤا غاردنر.

– هل أنتَ متأكّد؟

– طبعاً.

– لا. لم أره. ولكن عليّ أن أراه. فأقرب نقطة من رؤية المرأة عارية هو أن ترى ملابسها الداخليّة. عليّ أن أراه. ما لونه؟

مكتبة
t.me/t_pdf

23– Vito Corleone الشخصية الرئيسة في رواية العرّاب.

24– Ava Gardner (1922– 1990). ممثلة ومغنيّة أمريكيّة شهيرة.

– أسود. بدانتيل. كان همنغوي يستخدمه ليلفّ به مسدسه.

– يجب أن أراه – كرّر كونده، وكأنّه شخصيّة من شخصيات همنغوي.

وبعد أن شكر لخوان تينوريو مساعدته، طلب منه أن ينزله في الناصية القريبة. لم يتجرأ على سؤاله عمّن أجرم في حقّه وسمّاه بذلك الاسم الذي لازمه طول حياته، أهو أبوه أم هي أمّه؟[25]

كان التجوّل في هافانا أماسي الصيف تلك، وبعد هطول المطر، يستهوي كونده. فحرارة الصيف تطول وقتها حتّى اليوم التالي، ويعلق في الأجواء طعمُ رطوبة يريحه، كما يفعل الرون، ويمنحه قوة تعينه على مواجهة آلام حياته الكبيرة.

عند بوابة البيت وقف كارلوس الفلاكو، الذي ما عاد نحيفاً، بعد أن تحوّل، من سنوات، إلى كتلة من الشحم تجلس على كرسي متحرّك، مع ذلك فقد كان كونده يصرّ على أن يدعوه باللقب الذي منحه إيّاه أيام الدراسة الثانويّة، حين كان كارلوس نحيفاً جداً، وحين لم يكن يخطر ببال أحد أنّ حرباً لا ناقة لهم فيها ولا جمل ستتركه كسيحاً مقعداً. ما أمتن الصداقة التي ربطت بين الاثنين، وما أصدقها، حتّى باتا أكثر من صديقين وأقرب منزلة من الأخوين. صار كونده يزور كارلوس كلّ ليلة ليسمعا معاً الموسيقى نفسها التي كانا يسمعانها قبل عشرين سنة، ويتكلما عمّا يستطيعان الكلام عنه، ويشربا ما يجدانه من شراب، ويأكلا، بشراهة وتخطيط، الأطباق الشهيّة التي كانت تصنعها خوسيفينا، أمّ كارلوس.

– هل فاجأك المطر، أيّها الهمجي؟ – سأله الفلاكو لدى وصوله.

– فاجأني ما هو أسوأ: فاجأني سروال– وقصّ على صديقه حكاية سروال أسود، مشغول بالدانتيل وبذكرى طيات جلد آڤا غاردنر الشهيّة الرائعة. صحيحٌ أنّه لم يرَ السروال بعد، لكنّه ما عاد يستطيع أن يبعده عن تفكيره.

– أراك تفقد مؤهلاتك – قال كارلوس–. أن يغيب عنكَ سروال هكذا...

– لأنّي ما عدتُ شرطياً – قال كونده مدافعاً عن نفسه.

25– Juan Tenorio هو الاسم الكامل للعاشق الشهير (دون جوان)، بطل رواية الإسباني خوسيه ثوريّا (1817–1893) التي تحمل اسمه عنواناً لها.

– كفّ عن السخرية. ليس ضرورياً أن تكون شرطياً لكي تعثر على سروالٍ لآڤا غاردنر

– لكنّ ذلك يسهل المهمة، أليس كذلك؟

– طبعاً. لكنّكَ الآن محقق خاص. ما أغربَ هذا. أليس كذلك؟

– بالطبع – أطرق كونده مفكراً في صفته الجديدة–. فأنا إذن محقق خاص سافل. تصوّر...

– وما الذي لم تكتشفه أيضاً، مارلو[26]؟

– أشياء كثيرة. لم أكتشفْ بعدُ قاتلَ القتيل، ولا مَن عساه يكون ذلك القتيل. لكنّي اكتشفتُ شيئاً محزناً، وحيداً، ونهائياً: مَن أريدُ أن يكونَ القاتل.

– ذلك تعلمه هافانا كلّها، كونده... الغريب هو أنّك كنتَ تحبّه كثيراً.

– كنتُ أحبّ طريقته في الكتابة.

– ألمثلي تقول هذا؟ كنتَ تحبّ الرجلَ أيضاً. كنتَ تقول إنّه رائع. أتذكر يوم أجبرتنا جميعنا على الذهاب إلى المزرعة.

– ما تقوله غير معقول. كنتُ مقتنعاً بأنّه كان رائعاً، مع ذلك فقد بقيت أشياءُ تشفع له. فهو ما كان يطيق السياسيين، وكان يحبّ الكلاب.

– كان يفضّل القطط.

– صحيح...طيب، كان يحبّ الكلاب قليلاً وما كان يطيق السياسيين.

– قل لي، ألا تعلم شيئاً عن تمارا؟

نظر كونده صوب الشارع. لقد سافرت تمارا قبل ثلاثة أشهر إلى ميلانو لزيارة شقيقتها التوأم، المتزوجة من إيطالي، وصارت خطاباتها وإرسالياتها من جبن البارميزان أو من رقائق الجمبون اللذيذ تقلّ وتزداد تباعداً يوماً بعد يوم. ومع أنّ كونده تجنّب إقامة أيّة علاقة رسمية مع تلك المرأة، التي ظلت تروق له وهي في الخامسة والأربعين، كما كانت تروق له وهي ابنة الثماني عشرة، والتي كان غيابها يتركه في عفّة مؤلمة، فإنّ مجرد التفكير في احتمال ألا تعود إلى كوبا، حيث انقطاع الكهرباء، والجري وراء لقمة

26– يشير إلى شخصيّة المحقق فيليب مارلو التي تظهر في سلسلة قصص بوليسيّة ألّفها الكاتب الأمريكي رايموند شاندلر (1895–1959)

العيش، وعدوانية الشارع، ومذلّة المال، وإرساليات أختها لها من الجبن وشرائح الجمبون، كان يثير ألماً في معدته وفي قلبه وفي أعضاء أخرى من بدنه أسوأ مكاناً.

– لا تكلمني عن ذلك – قال بنبرة منخفضة

– ستعود، كونده.

– نعم، ستعود ما دمتَ تقول ذلك...

– جرحكَ بليغ، يا صديقي

– إنّي ميت.

هزّ كارلوس رأسه ندماً على أنّه طرق الموضوع، وبحث عن مخرج مناسب.

– اسمع. كنتُ اليوم أقرأ قصصك الهمنغويّة. لا بأس بها، كونده.

– أما زلتَ تحتفظ بتلك الأوراق؟ قلتَ لي إنّك سترمي بها...

– لم أرمِ بها ولن أعيدها إليكَ.

– هكذا أفضل، لأنّها إن وقعت في يدي فسأمزقها. أزداد قناعة، يوماً بعد يوم، بأنّ همنغوي كان رجلاً سافلاً. فهو بدءاً رجل لا صديق عنده...

– وهذا شيء خطير.

– خطير جداً، فلاكو. خطيرٌ خطورةَ الجوع الذي أشعر به الآن. هل لي أن أعرف أين هي ساحرة الطنجرة؟

– ذهبتْ لتجلب زيتَ زيتون بكراً لعمل السلطة.

– وماذا أيضاً؟ – طلب منه كونده.

– اسمع. قالت لي العجوز إنّ الأمور اليوم ستكون على قدر الحال. أظنّ أنّها لن تطبخ اليوم أكثر من الباميا‌ء بلحم الخنزير والجمبون في داخله ورز أبيض ومقلي القلقاس وسلطة الأفوكادو والجرجير والطماطم. أمّا للتحلية، فلديها مربّى الجوّافة مع الجبن الأبيض...ها، وربّما ستسخّن شيئاً من تامال الأمس.

– كم قطعة من التامال بقيت على قيد الحياة؟

– عشر قطع تقريباً. كانت أكثر من أربعين، أليس كذلك؟

– تركنا عشر قطع؟ أرى أنّنا نفقد قابليتنا. كنّا من قبل نأكلها كلّها، أليس كذلك؟ ما يزعجني هو أنّي لا أملك ما أشتري به قليلاً من الرون، وما أحوجني إلى الرون...

ابتسم كارلوس الفلاكو. وكان يعجب كونده أن يراه مبتسماً: واحد من الأشياء القليلة التي ما زالت تعجبه. العالم يتحلل والناس يبدلون أحزابهم وجنسهم، يبدلون حتّى عرقهم، بينما العالم يفنى ويذوب، بلده نفسه صار يبدو له غريباً ومجهولاً، وهو أيضا يذوب، الناس تتركك من دون أن تقول لك وداعاً، مع ذلك، وعلى الرغم ممّا عانى، ومما فقد وخسر، فقد كان كارلوس الفلاكو يحافظ على قدرته على أن يبتسم، بل وعلى أن يؤكد:

– لكنّنا، أنا وأنتَ، لسنا مثل همنغوي. نحن لدينا أصدقاء... وأصدقاء جيدون. اذهب إلى حجرتي، ستجد زجاجة رون قرب المسجّل. هل تدري من أين جاءني بها؟ كانديتو الأحمر. فبما أنّه مسيحي لا يشرب الخمر، فقد جلب لي ما أعطوه إياه في الحصّة: زجاجة رون (سانتا كروث) من...

توقف الفلاكو عن الكلام إذ رأى أنّ صديقه ما عاد ينصت إليه. دخل كونده إلى البيت يائساً متلهفاً، وها هو يعود منه وهو يلوك قطعة من الخبز القديم ويحمل كأسين في إحدى يديه وزجاجة الرون في اليد الأخرى.

– هل تدري ماذا رأيتُ؟ – قال، من دون أن يترك الخبز.

– لا. ماذا رأيت؟ – سأل الفلاكو وهو يتناول شرابه.

– رأيتُ في نافذة الحمّام سروالَ أمّك...! فأين منّي سروالُ آقا غاردنر؟

***

تطلّع إلى زجاجة «كيانتي» وكأنّه ينظر إلى عدوّ: فالنبيذ يرفض الخروج من داخلها، والكأس كانت فارغة. وضع الكأس والزجاجة ببطء على الأرض واستلقى من جديد على الكنبة. أحسّ برغبة للنظر إلى الساعة، لكنّه كبح رغبته. نزعها من معصمه وتركها تسقط بين الكأس والزجاجة، فوق سجادة النسيج الفلبيني الوثيرة. لقد قرّر أن يمضي تلك الليلة بلا ضوابط ولا محدّدات. قرّر أن يؤتي أفعالاً يرغب في فعلها. بدأ أوّلاً بعادته الممتعة المثيرة في حكّ أنفه بظفره لينزع من جلده تلك القشور البيضاء التي تثير فزع

مس ماري. إنّه سرطان حميد، اعتاد أن يقول. إنّه كلف جلدي نتج عن تعرّض بشرته مطوّلاً لشمس المدار، أثناء قيادته حملة البحث عن الغواصات النازيّة التي كانت تجوب مياه الكاريبي الدافئة حاملة الكراهية والموت.

إنّ ما كان يثير قرف زوجته - وهو يعرف ذلك- أنّه كان يمارس تلك العادة على الملأ، بل وهو جالس على مائدة الطعام أحيانا. وما أكثر ما اجتهدت مس ماري في تنظيفه وتهذيبه. وكم حاولت أن تمنعه من ارتداء الملابس المتسخة، وأن تجعله يستحمّ كلّ يوم، وأن يرتدي سرواله الداخلي، على الأقل حين يخرج إلى الشارع. حاولت أن تمنعه من تمشيط شعره أمام الناس وما يعني ذلك من تساقط القشرة من رأسه، ولطالما وجّهته بألا يشتم بلغة هنود مشيغان. وتوسلت إليه على نحو خاص ألا يحكّ بأظافره بثور جلده الغامقة. لكنّ جهودها كلّها ذهبتْ سُدى إزاء تمسكه بسلوكه الصادم وتصرفاته الفاضحة حرصاً منه على إقامة حاجز إضافيّ بينه وبين بني البشر. ما من علاقة بين موضوع البثور وتصرفاته القديمة المفتعلة، لكنّها استجابة لمتعة تنشأ في اللاوعي، تفاجئه في أيّة لحظة وأيّ مكان.

أمّا الحجّة التي اعتاد أن يسوقها فهي أنّه ما كان ليتخلّى، مراعاة لتمدّن زائف وتحضّر منافق وبرجوازيّة لطالما احتقرها، عن خسائر وآلام - بعضها لم يكن في الحسبان- دفعها ثمناً لشهرة حازها عن مآثر ومواقف ومناقب بلغ صداها الآفاق. في جسمه قريبٌ من ثلاثمئة ندبة - أكثر من مئتين نتجت عن حادثة واحدة، حين أصابته قنبلة يدويّة في «فوسالتا»[13]، بينما كان يحمل على كتفيه جندياً جريحاً- يستطيع أن يحكي عن كلّ واحدة منها قصصاً وحكايات امتزجت في ذهنه وذاكرته حتّى ما عاد يميّز صحيحها من موضوعها. بل إنّ رأسه بدا، حين حلقه آخر مرّة، خريطة لعالم من الغضب والحُرقة، عالم زاخر بالزلازل والأنهار والبراكين. ما كان ينقصه من الجراح التي كان يتمنّى التباهي بها غير نطحة ثور، وكان منها قاب قوسين مرّتين. أحزنه أن اتخذ تفكيره ذلك المنحى، فما كان من شيء يحزنه قدرَ ذكر مصارعة الثيران، فالمصارعة تذكّره بمراجعته اللعينة المؤجّلة لروايته *موت في الظهيرة* التي استعصتْ عليه ورفضت الانسياب في مجرى لطيف، بل لقد أثارت فيه حنيناً وميلاً إلى تلك الأيام، حين كانت الظروف تسمح له

بالتحرك في الحقل والتجوّل فيه بمزاجه وإرادته: يسير بين الأشجار ليخرج إلى المساحات الفارغة من الغابة، ويرتقي طلعة لينظر منها إلى الروابي التي تربض بعيدة عن ضفة البحيرة. حينها كان يحشر ذراعه من بين شريط الحقيبة التي تبللت بعرقه، ثمّ يرفعها ليحشر الذراع الأخرى من بين الشريط الثاني، ليوزّع، هكذا، ثقلها على ظهره. حينها كان يشعر بوخز أشواك الصنوبر من تحت خفّيه وهو يجتاز المنحدر المؤدي إلى البحيرة، ليجلس، نهاية العصر، في فضاء من فضاءات الغابة ويضع مقلاته على النار، وفيها شرائح لحم الخنزير المقلي بدهنه، حتّى تبلغ رائحة ذلك اللحم أنف القارئ...

شعر بضيق في صدره، فقرّر أن ينطلق. كانت الساعة قريبة من الحادية عشرة حين بدأ النبيذ يؤدّي فعله المحرّر ويُبدي قدرته الخدّاعة على الاستحضار. وقف على قدميه وفتح الباب. على سجادة المدخل كان بلاك دوغ بانتظاره، وفيّاً كما هو ديدنه.

– قالوا لي إنّكَ لم تأكل، وأنا لا أصدّق ما يقولون– بدأ الحيوان يهزّ ذيله. كان قد التقط ذلك الكلب من أحد شوارع «كوخيمار»، وهو بعدُ جرو صغير، قبل ثلاثة عشر عاماً. ومنذ ذلك الحين والكلب الأسود، ذو الشعر المجعّد الذي علته شعراتٌ بيض، في علاقة مودة وانقياد مع سيده، الذي كان يؤثره على بقيّة كلاب المزرعة–. تعال، لنحلّ هذه المشكلة...

بدا الحيوان متردداً حيال الدعوة، فمس ماري ما كانت تدعه يدخل إلى البيت، كما كانت تفعل مع قططها، وخصوصاً تلك التي كانت من نسل المرحوم «بوا»، الهرّ الذي أحبّته أكثر من سواه على مدى علاقتها الطويلة بالقطط.

– تعال. هيّا. فالمجنونة ليست هنا...

طقطق أصابعه فتبعه الحيوان. سار وراءه إلى المطبخ، متردداً في البداية ثم واثقاً. بدأ همنغوي يقطّع بالسكّين شرائح من فخذ الجمبون المعلّق في موضعه. كان يعرف أنّ بلاك دوغ صاحب نزوة، وقد لا يأكل إلّا من ذلك الجمبون السيرّانو. ألقى بعدة شرائح في الهواء فتلقفها الكلبُ، واحدة إثر واحدة، والتهمها من دون مضغ تقريباً.

– أحسنت! أحسنت! ما زال *بلاك دوغ* العجوز صياداً ماهراً. هكذا نحن أفضل، أليس كذلك؟... سننصرف في الحال.

ذهب إلى حمّام غرفته وفتح فرجة بنطاله. تأخر بوله في الخروج، وحين بدأ بالتدفق شعر كأنّ رملاً ساخناً يخرج من فتحة إحليله. أعاد قضيبه المترهل إلى موضعه من دون هزّ وتوجّه إلى مكتبه. أخرج من الجارور العلوي، حيث كان يحفظ الوصولات والشيكات، مسدساً من عيار 22 كان يحمله دائماً في جولاته في المزرعة. لفّه بسروال أسود كانت آڤا غاردنر قد نسيته بعد إحدى زياراتها. كان السروالُ والمسدسُ معاً يعينانِه على تذكّر أوقات كان بوله فيها يخرج بدفق قويّ شفّاف. رفع من الأرض مصباحاً يدوياً بثلاث بطاريات وجرّبه. همّ بالخروج، لكنّ هاجساً خطر له أعاده إلى الغرفة. عاد إلى رفٍ وضعت عليه أسلحة الصيد ليحمل رشاشة تومسون رافقته منذ عام 1935، وقد اعتاد استعمالها لصيد أسماك القرش. كان قد نظفها قبل ثلاثة أيام ونسي كعادته أن يعيدها إلى مكانها في الطابق الثاني من البرج. كانت سلاحاً شبيهاً بالذي استخدمه هاري مورغان في رواية *أن تملك وألّا تملك*، وإيدّي، صديق توماس هودسون وطبّاخه، في رواية *جزر في الخليج*. تلمّس أخمصها وتحسس برودة ماسورتها ثمّ ركّب عليها خرطوشاً كاملاً، فكأنّه متوجّهٌ إلى قتال.

كان *بلاك دوغ* بانتظاره في الصالة. استقبله بفرح، ينبح ويستعجله الخروج. ما كان أعظم فرحته بقربه من سيده في تلك الجولات التي اعتاد الصياد أن يستثني كلاب المزرعة الأخرى منها، والقطط بالطبع.

– أنت كلبٌ عظيم – قال للكلب–. عظيم وطيب.

خرج من باب الصالة الجانبي، المفتوح على فسحة البئر التي بناها مالك المزرعة الأوّل من الخزف البرتغالي. واستمتع، وهو في طريقه إلى المسبح، بشعور من يحمل السلاح ويحظى بالحماية. منذ زمن وهو لا يستعمل تلك الرشاشة، ربّما منذ أن خرج مع منتجي فيلم *الشيخ والبحر* إلى مياه الخليج بحثاً عن سمكة خرمان عملاقة استعملوها في الفيلم لإثارة القروش. أمّا تلك الليلة، فهو لا يدري لماذا قرّر حملها في مشواره البريء، غير عالم أنّ ذلك السؤال سيظلّ يلحّ على ذهنه لما بقي من عمره حتّى تحوّل إلى هاجس

مؤلم. ربّما حملها لأنّه تذكّرها قبل أيام، ولأنّه أجّل إعادتها إلى المشجب مراراً؛ وربّما لأنّها كانت سلاح غريغوري المفضّل، أكثر أولاده مزاجيّة، الذي ما عاد يعرف شيئاً عنه منذ وفاة أمّه، اللطيفة باولين[27]؛ أو ربّما لأنّه شعر بانجذاب وراثي للسلاح، خارج كلّ حساب، نشأ فيه حين أهداه جده لأبيه، وهو ابن عشر، بندقية صغيرة من عيار 12 بماسورة واحدة، طالما تذكرها على أنّها أجمل هديّة تلقاها في حياته. منذ ذلك الحين، تحوّل إطلاق النار والقتل إلى واحد من أفعاله المفضلة، إلى ما يقرب من الضرورة والحاجة، على الرغم من الحكمة الأبوية القائلة إنّ القتل لا يبرره إلا كسبُ القوت. لكنّه سرعان ما نسي تلك الحكمة التي لم يدرك عواقب خرقها إلا حين أجبره أبوه ذات يوم على أن يلوك قطعة من لحم دعلج أطلق النار عليه إرضاء لنزوة ورغبة في إطلاق النار.

لقد أصبح السلاحُ القاتلُ في أدبه، شيئاً فشيئاً، مرادفاً للرجولة وللشجاعة. وضعه في يد جميع أبطال رواياته، الذين استعملوه أحياناً للقتل. مع ذلك، فلا يعرف عنه أنّه قتل. قتل آلاف الطيور والكثير من أسماك القرش والخرمان ووحيدات القرن والغزلان والوعول والثيران والأسود والحمر الوحشيّة، ولكن لا يعرف عنه أنّه قتل إنساناً. شارك في ثلاث حروب وكثير من المعارك، لكنّه لم يقتل. ولم يكن حكيماً حين أشاع قصّة مفادها أنّه ألقى قنبلة يدويّة في قبو اختبأ فيه عدد من عناصر الجستابو، كانوا يحولون دون تقدم قواته من المتطوعين نحو باريس، لأنّه اضطر، حين مثل أمام محكمة الشرف، بعد أن وجّه إليه مراسلون حربيّون آخرون تهمة المشاركة في أعمال حربيّة تحت غطاء الصحافة، إلى أن يناقض نفسه. فلماذا لم يتمسّك بكذبته؟ ماذا كان سيفقد؟ بطاقة الصحفيّ؟ وهل كان ذلك يهمّه كثيراً؟ لماذا قال في معرض دفاعه عن نفسه إنّه كذب بشأن القنبلة اليدويّة والنازيين؟ وماذا كان سيتضرر من إفادته تلك غير ما عُرف عنه من أنّه رجل حرب وقتال؟ ثمّ، وهذا هو الأهم، لماذا لم يقذف بالرمّانة ويقتل أولئك الرجال؟ ما زلتَ لا تعرف السبب، أيّها الفتى، ويزعجك ألّا تعرفه.

27- هي الصحفيّة الأمريكيّة Pauline Pfeiffer (1895-1951) كانت زوجة همنغوي الثانية. تزوجا عام 1927 وتطلقا عام 1940.

أنعشَ مطرُ العصر الأشجارَ والعُشب، ولطف الجوّ بفعل الرطوبة. توجّه، قبل أن ينزل إلى البوابة الخارجيّة، حيث كان كاليستو يقوم بالحراسة، إلى المسبحْ وطاف به. توقف أمام قبور أسلاف *بلاك دوغ* وحاول أن يتذكّر شيئاً عن طبع كلّ واحد منها. جميعها كانت كلاباً جيدة، وخصوصاً نيرون، ولكن ليس كمثل *بلاك دوغ* كلب.

أنت خير كلبٍ عرفته – قال للحيوان، الذي تقرّب منه حين رآه منحنياً عند ارتفاعات خفيفة من الأرض، وضعت عليها لوحات خشبيّة صغيرة للتعريف بالكلاب المدفونة.

لم يشأ أن يطيل التفكير في الموت واستأنف طريقه. التفّ من حول المسبح واتجه صوب العريشة المغطاة بالمتسلقات المزهرة، حيث كابينات تغيير الملابس. سقطت ورقة يابسة من أعلى شجرة فحرّكت أمواجاً صغيرة على سطح الماء الهامد، كانت كافية لكسر ذلك التوازن الحرج دائماً وظهور صورة أدريانا إيڤانسيتش[12] النديّة البرّاقة وهي تستحمّ تحت ضوء القمر. كان صعباً عليه ثنيُ نفسه عن تلك الشابة التي ما كان له أن ينتظر منها غير متعة عابرة ومعاناة طويلة: ومع أنّ تلك لم تكن المرة الأولى التي يغرم فيها بالشخص الخطأ، فقد كان الخطأ هذه المرة يتصل بتقدمه في السنّ، وكان له في تناقص قدراته التحذيرُ الخطير الأوّل باقتراب شيخوخته. فإذا لم يعد قادراً لا على الحبّ ولا على الصيد ولا على الشرب ولا على القتال ولا على الكتابة، تقريباً، فما نفع الحياة إذن؟ تحسّس ماسورة التومسون البرّاقة ونظر إلى العالم الساكن الذي ينبسط تحت قدميه. في تلك اللحظة، رآها، في الطرف الأخر من العريشة، تلمع من فوق بلاطة من خزف.

***

-3-

حين تبيّن له أنّ ما سمعه لم يكن قصفاً جوياً ولا بدايات إعصارٍ غادر، أدرك أنّه ثاني استيقاظ عاصف له في يومين.

- كونده. هل سأمضي نهاري كلّه هكذا- صرخ الصوت الغاضب، وواصل طرقَه الصاخب على الباب.

كان عليه أن يفكّر ثلاث مرّات في طريقة للنهوض، وثلاث مرّات أخرى في محاولته، قبل أن يقف على قدميه. ألمٌ في ركبتيه وألم في رقبته وخاصرته. ما الذي بقي منك سليماً، ماريو كونده؟، سأل نفسه. الرأس، ردّ على سؤاله، بعد فحص ذهنيّ سريع أجراه على بدنه. فدماغه، ويا للعجب، كان يعمل، بل لقد تذكّر أنّ صاحبهما الكونيخو وصل، حين أوشكا، الليلة البارحة، أن يفرغا زجاجة الرون من آخر قطرة، يحمل ليترين من «الكوليفان» الذي يصنعه وبيعه پيدرو الفايكنغ. تذكّر أنّهم شربوا منه بسرعة، بينما التهموا التامال الذي كانوا تركوه إلى النهاية، وهم يستمعون إلى موسيقى «ذي كريدينس»[28]، «ذي كريدينس» دائماً، بل لقد قرأوا، بطلب من كارلوس، إحدى قصص كونده القديمة، قصّة كتبها على طريقة همنغوي، تروي تفاصيل عملية تصفية حساب سرعان ما تحوّلت إلى تصفية حساب جديد بين كونده وأقدم صور الحنين الضائع للكوبي المفتون بأدب همنغوي. لكنّ مقاومته الأثيليّة ما عادت كما كانت. من عساه يكون! قال، وهو يتحاشى صفوف آخر مجموعة من الكتب التي اشتراها ويتذكر ساعات

28- The Creedence فرقة روك آندرول أمريكية. ظهرت أواخر الستينيّات واستمر نشاطها حتّى عام 1972.

فجر أخرى مضطربة، حلّت عقب ليال أشدّ اضطرابا ورطوبة. لذلك فتح الباب وهو يقول:

– اسكت خمس دقائق. خمس دقائق. ودعني أبول وأعدّ القهوة.

لزم الملازم مانويل پلاثيوس الصمت، فقد اعتاد سماع ذلك الأمر. نظر بقلق إلى الصناديق المليئة بالكتب، مبعثرةً في أرجاء البيت، وواصل سيره نحو المطبخ، وقد وضع بين إصبعيه سيجارة لم يشعلها. خرج كونده من الحمّام بوجهٍ وشعرٍ مبللين وأعدّ القهوة. وانتظر الرجلان القهوة، من دون أن يتبادلا كلاماً ولا نظراتٍ. جفف كونده وجهه بالبلوفر المثقب الذي كان يرتديه وصبّ فنجانين، واحداً كبيراً له وآخر صغيراً لمانولو. بدأ يتناول القهوة في رشفات تغسل كلّ واحدة منها فمه وتلفّ في حنجرته وتنزل إلى أعماق معدته لتوقظ إحدى خلاياه العصبية القليلة المستعدّة للعمل. وأخيراً أشعل سيجارته ونظر إلى زميله السابق:

– هل رأيت *باسورا* في الخارج؟

– لم أره في الخارج – قال مانولو–، كان مع مجموعة من الكلاب، تحوم حول كلبة.

– منذ ثلاثة أيام لم أر ذلك السافل. لقد سعيت وراء الكلب الذي أستحقه: مجنون وشبق.

– هل أستطيع أن أتكلّم الآن؟

– هيا. تكلّم. قلْ ما تريد...

– انسَ قصة همنغوي وواصل بيعَ الكتب. أحملُ لكَ قنبلة. قنبلة بمعنى الكلمة.

– ماذا حدث؟

– لقد تضافر المطر الذي سقط أمس مع كريسپو والغريكو، وأخرج هذا من بين التراب.

وضع على الطاولة كيساً من النايلون فيه شارة معدنيّة عليها بقايا جلدٍ أسود. على سطح المعدن الصدئ خطوطٌ تمثّل شعاراً وأرقاماً متآكلة ومطموسة وثلاثة حروف مثيرة للقلق: FBI.

- تبّاً!- هتف كونده.

ابتسم الملازم بلاثيوس، مرتاحاً.

- صاحبنا قتل شرطياً فدرالياً.

- هذا لا يثبت شيئاً... - أشار كونده إلى قطعة المعدن من دون أن يبدو مقتنعاً.

- لا يثبت شيئاً؟ انظر، هذا يوضح أنّ القول إنّ مكتب التحقيقات الفدرالي كان يتتبعه لم يكن مزحة. معروف أنّهم، ومنذ سنوات، يلاحقونه، وهذا يضع النقاط على الحروف، كونده. أليست هذه قنبلة؟

أطفأ كونده سيجارته وتناول الظرف وبداخله الشارة المعدنية.

- يعني الكثير، لكنّه لا يعني كلّ شيء.

- أعرف ذلك، أعرف ذلك. لكن علينا أن نتحقق: فهل اختفى أحد عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي في كوبا بين عامي 57 و60؟ وهل نستطيع أن نعرف ما كان يفعله هنا؟

- هل كان يراقب همنغوي؟ يبتزه؟

- ربّما. وإن كان...

- وإن لم يكن هو من قتل الرجل، مانولو؟

- فليذهب إلى جهنّم. لكنّ الجائزة، مع كلّ تلك الأدلّة، ستكون من نصيبه، وسيتمرّغ بالخراء حتّى أذنيه...

نهض كونده. فتح حنفية حوض الغسيل وعاود ترطيب وجهه وشعره. صبّ بقيّة القهوة وأشعل سيجارة أخرى. شعر حينها بانحسار تأثير الكحول عليه، فقد أحسّ، وهو يقرأ لصديقيه قصته القديمة، بتيار غامض ومزعج سرى في رأسه وحرّك تحامله المستحكم الذي كان، حتى تلك اللحظات، يكنّه للمعلم الذي طالما أحبّه وأعجب به، قبل أن يحكم لاحقاً بأنّه كان مخدوعاً به.

- دعني أخبرك بشيء، مانولو...لا أريد أن أتعجل الأمور. أنتَ تعرف أنّي أتمنّى أن أثبت عليه التهمة. لكنّ القتل يستدعي شجاعة فائقة، وأنا لستُ متأكّداً من أنّه يمتلك من الشجاعة ما يكفي لفعل ذلك.

– وماذا عن هذا الخراء، كونده؟ هل شربت شيئاً أمس؟

– لا تفتح لي مواضيع أخرى... كلّ ما في الأمر هو أنّي لستُ متأكداً من أنّه هو الفاعل. هذا كلّ شيء. لنتفق على شيء: احتفظ بهذه الشارة ثلاثة أيام. امنحني مهلة من ثلاثة أيّام.

– أراكَ جننتَ. اسمع، الجميع يعلم أنّ همنغوي يمتلك ترسانة أسلحة في بيته، وقد تحققتُ من مدير المتحف أنّه كان يقوم دائماً بجولة في المزرعة وهو يحمل مسدسه. إذا صادفت رجلاً يحوم حول بيتك ليلاً، ورأيت أنّ ذلك الرجل غير مريح، وأنت تحمل مسدساً...، فأيّ مكان للشجاعة أو لغير الشجاعة في هذه الحالة؟. اسمع، من الأفضل لكَ أن تترك هذه الحكاية وتعود إلى بيع الكتب وإلى الكتابة، فربما انتهيت من واحدة من تلك الروايات التي بدأتها وتصبح كاتباً حقيقياً.

نهض كونده ونظر من النافذة. كان النهار مشمساً والطقس حاراً.

– كاتب حقيقي، تقول. وهل تراني الآن كاتباً مزيّفاً؟

– لا داعي للتحسّس. أنتَ تفهمني.

– وأنتَ أيضاً تفهمني. فما زلتَ لا تمتلك الرصاصات، ولا تعرف بأيّ شيء قُتل رجل مكتب التحقيقات الفدرالي.

– ما عاد ذلك ضرورياً.

لفّ كونده شعورٌ غريب. فقد سقط كلّ تحامله وكلّ رغبته في تجريم همنغوي في مستنقع ذاكرته، وها هي تغرق أمام حقيقة أنّ الكراهية لا يمكن أن تنسيه حسّه القديم بالعدالة، وأنّ كتب همنغوي وشخصيته، على الرغم من كلّ شيء، ما زالت تهمّ الكثيرين.

– تذكّرْ أنّه كان يمضي أشهراً خارج المزرعة. ربّما في ذلك الوقت...

– ماذا دهاك، كونده؟ ما الذي غيّر قلبكَ وألانه بين أمس واليوم؟ بدءاً أنا لا أزعم أنّه قتله: أقول فقط إنّ في مزرعة «بيخيّا» ظهرت جثة وإلى جانبها هذا– ووضع يده على الشارة.

– لا تكن شرطياً إلى هذا الحد، مانولو. سينقضّون عليه كالنسور. وسيعملون من القصّة قضيّة سياسيّة. وهذا أشدّ ما يزعجني.

– هو وحدَه المسؤول عن ذلك، تمام؟ ألم يكن محارباً؟ ألم يكن يشيدُ بالشيوعيين؟ وما كان أسهل ذلك عليه: محاربٌ يحمل زمزميّة ويسكي وجن في خصره، شيوعي يمتلك يختاً ومالاً يستطيع العيش به على مزاجه. آه، كونده، لقد ضقتُ ذرعاً بأبناء العاهرات الذين يعيشون عيشة الأمراء ويتكلمون عن العدالة وعن المساواة.

– انظر، مانولو– عاد كونده إلى كرسيه، وعاود رفع الظرف الذي يحتوي الشارة–، كلّ ما تقوله صحيح، وأنتَ تعلم أنّي أشاطرك الرأي في هذه المسألة. ولكن إذا كان هذا الميت مفقوداً منذ أربعين سنة، فماذا يهمّ أن تحتفظ بالشارة ثلاثة أيام. أبقِ على المتحف مغلقاً ودعني أتحقق من بعض الأمور. افعل ذلك من أجلي، لا من أجله...اعمل لي هذا المعروف.

– أتطلبُ معروفاً؟ فعلينا السلام إذن...لا تقل لي إنّ هاجساً يدور في ذهنك.

ابتسم كونده للمرة الأولى في ذلك اليوم.

– لا هاجس ولا سواه. إنّه دينٌ بذمّتي. كنتُ معجباً بذلك الرجل، وهو الآن أثقل على قلبي من ركلة في خصيتيّ. ظننتُ أنّي أعرفه، لكنّي في الواقع لا أعرفه. ولستُ الوحيد الذي لا يعرفه، بل لا أحد يعرفه. دعني أتحقق من الحكاية: هذا كلّ ما أطلبه. ربّما أعرف حينها ما الذي حدث.

– لكن عليّ أن أقول شيئاً لرؤسائي...

– قلْ لهم أيّ شيء ممّا علّمتكَ إيّاه.

– أنتَ تخدعني، كونده.

– أبداً... سترى أنّي لا أخدعك. أبقِ على هذه الشارة معك وأمهلني ثلاثة أيّام. وفي هذه الأثناء، افعل شيئاً: اقرأ النهر الكبير ذو القلبين واعطني رأيك فيه.

– قرأتُه قبل وقت قريب...بسببك.

– اقرأه ثانية. اسمع كلامي.

– حسناً، سأقرأه، لكنّي لا أفهم لماذا تريد أن تعرف رجلاً لم يعرفه أحد، حسب كلامك، ويقع منك موقع الركلة على الخصيتين...

تثاءب كونده ونظر إلى زميله القديم.

- لا أدري. أقسمُ لك بروح أمي... لكنّنا، نحن الكتّاب الحقيقيين، هكذا، أليس كذلك؟

***

ربّما كان المومياء الأخيرة. لا بدّ أنّ خبيراً بتحنيط الفراعنة أنجز معجزة حين أجلسه على الكرسي، وتعامل مع كلّ طيّة من طيّات جلده بصبر قدامى المصريين، حتى أوصله إلى أن يبدو حيّاً قدرَ ما يبدو ميتاً. تأمله كونده لدقائق. ركّز انتباهه في التحفة الفنيّة التي تمثلها اليدان، حيث صنعت الندبُ وعروق الجلد والأوردة والتجاعيد نسيجاً عجيباً. ثمّ تجرأ على مسَه. انثنت جفنا العجوز ببطء، فكأنّهما جفنا زاحف نعسان، وتراجعت عيناه الزرقاوان الباهتتان أمام هجمة الضوء.

- ماذا جرى - تكلّم. بهت الكونده: ليس صوتُه صوتَ عجوز.

- أردتُ أن أتكلّم مع حضرتك، توريبيو.

- ومن أنت؟

- حضرتك لا تعرفني، لكنّ جدّي كان صديقك: روفينو كونده.

بادر العجوزَ بالقول فتركه مبتسماً.

- كان رجلاً خطيراً...، وغشاشاً...

- صحيح، أعرف ذلك. أنا نفسي كنتُ أساعده في الديوك.

- روفينو مات، أليس كذلك؟

- بلى. من سنوات. بعد أن منعوا نزالات الديوك. فقد كانت حياته.

- وحياتي. شيء رائع، مرت سنوات على منع نزالات الديوك وقد مات الجميع. لا أدري ما الذي يجعلني حيا حتّى الآن. أنا أعمى تقريباً.

- كم عمرك، توريبيو؟

- مئة سنة وستتان وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً...

ابتسم كونده. هو أحياناً ينسى عمره. لكنّه فكّر أنّ كلّ يوم لا بدّ أن يكون مهمّاً عند توريبيو ألتوثاو، لأنّه يقرّبه من نهاية حسابٍ بلغ حدّه. في أقدم زاوية من زوايا ذاكرة كونده تقبع صورة توريبيو وهو يتفحص ديكاً: يفحص

شوكاته ويفرش جناحيه ويتحقق من قوّة عضلات قائمتيه ويعاين أظافره ويفتح منقاره ويتحسس عنقه ثمّ يداعب بودّ المقاتل الذاهب إلى الميدان وإلى الموت. قلّما أثنى جدّه روفينو على خصومه، مع ذلك فقد كان يؤكّد أنّ توريبيو هو أفضل مالكي ديوك المصارعة في كوبا. ولعلّ هذا هو ما جعل همنغوي يكلّفه بتدريب ديوكه.

– كم سنة عملتَ مع همنغوي، توريبيو؟

– إحدى وعشرين، حتى مات. فآلت إليّ عندها ملكيّة ديوكه. ويا لها من ثروة. لقد أهداني إيّاها. كتب بابا ذلك في وصيته.

– وهل كان بابا رجلاً طيباً؟

– كان ابن قحبة حقيقياً، ولكن كانت تعجبه الديوك. وكان يحتاجني.

– ولماذا كان ابن قحبة حقيقياً؟

لم يردّ توريبيو ألتوثاو في الحال. بدا كأنّه راح يفكّر في الجواب. وحاول كونده أن يتخيّل آليّة عمل دماغ سابق لعصر المعلوماتيّة، دماغ موديل القرن التاسع عشر، دماغ من عصر ما قبل السينما والطائرات والقلم الجاف.

– ركبه الغضبُ ذات يوم ففصل رأس ديك انهزم في معركة نظمناها بقصد التسلية في «بيخيّا». لم أتحمّل ما رأيتُ فتبادلتُ معه اللكمات، وضربتُه وضربني. قلتُ له أن يذهب بديوكه إلى الجحيم، وقلت له إنّه مجرم قاتل، وليس من حقه أن يفعل ما فعل بالديك.

– لكنّ الديكة تموت في النزال، وتسمل بعضها عيون بعض... وأصحابها يذبحونها حين تعمى.

– هذا شيء مختلف: النزال بين الديوك نزال. وليس ذبح الحيوان تخليصاً له من العذاب كذبحه في لحظة جنون.

– هذا صحيح. وماذا حدث بعد ذلك؟

– كتب لي رسالة اعتذار. وكان قاسياً إلى درجة أنّه نسي أنّي لا أحسن القراءة. وقد سامحتُه وتعاقد هو مع معلّم علّمني القراءة. مع ذلك فقد ظلّ في نظري ابنَ قحبة.

ابتسم كونده وأشعل سيجارة.

– ولمذا يسمونك ألتوثاو؟

– أطلق هذا الاسم عليّ أحدُ مربّي الديوك في قريتي حين كنتُ صبياً يافعاً. حلقوا لي ذات يوم بماكنة من تلك التي يحلقون بها شعر الخيل، فتركت شعري قصيراً مقنفذاً، وعندها علّق أحدهم: «انظر إليه، يبدو كالديك المنتوف». وما زلتُ إلى يومنا هذا...، وكأنني أمضيتُ حياتي محشوراً بين الديوك.

– كان جدي روفينو يكنّ لكَ تقديراً كبيراً لخبرتك في الديوك.

– روفينو كان من الرجال الطيبين. وإن كان غشاشاً. ما كان يحبّ أن يخسر.

– كان يرى أنّ الفوز هو من ضرورات اللعب.

– لذلك لم يواجه ديوكي. أنا كنتُ أعلم أنّه كان يدهن ديوكه بالدهن. يضع الفازلين على رقبته هو، وبينما تُغسل الديوكُ وتُوزن، كان جدك يضع يديه على رقبته، كمن يشكو من ألم فيها، وحين يمسك بالديك يتركه وقد بات كالصابون... السافل ابن السافلة.

ابتسم كونده ثانية. كان يستمتع بتلك الحكايات عن جده، لأنّها تعود به إلى عالم يفتقده، عالم فيه شبه كبير بالسعادة التي يشعر بها وهو في أرض ذاكرته الحرّة.

– وهمنغوي؟ هل كان يفهم في الديوك؟

– طبعاً...أنا علمته – أكّد توريبيو، وحاول أن يعدّل وضعيّة عظامه على الكرسي.– دليل على ذلك أنّه حين ذهب إلى كوبا لينتحر قال لي إنّه حين ينتهي من كتابه عن مصارعي الثيران سيؤلّف كتاباً آخر عن مربي الديوك. وكنتُ سأكون بطله لأنّه كان يخطط ليروي حكاياتي عن خيرة ديوكي.

– لو أنّه ألّفه لكان كتاباً رائعاً.

– طبعاً. كتاباً رائعاً – أكّد العجوز.

– وهل كان يراهن بالكثير؟

– نعم. نعم. كان مقامراً بالفطرة. يراهن على الخيل وعلى الديوك... وكان محظوظاً، يربح دائماً تقريباً. وبعد أن يربح، كان يسكر، ويصرف أحيانا

كلّ ما ربحه ويوزعه. ما كان المال يهمه، ما يهمه كان كسب النزال. كان مهووساً بالنزالات وبشجاعة الديكة. يعجبه أن يرى عيني الديك وقد سُملتا بنقرتين من منقار خصمه ثمّ يواصل القتال وهو لا يرى عدوه. كان ذلك يثير حماسه.

– يا لغرابة أطواره. أليس كذلك؟

– قلت لك إنّه كان ابن قحبة. أرى أنه كان يحمل شيطاناً في داخله. لذلك كان يشرب كثيراً... ليهدئ الشيطان.

– نعم، بالتأكيد...وهل كنتَ تسكن في المزرعة؟

– لا. لم يكن أيّ من الذين يعملون معه يسكن في المزرعة. ولا حتّى راؤول، الذي كان يلازمه كظلّه. كان الجميع، ما عداي وعدا روبيرتو، من ذلك الإقليم، من سان فرانسيسكو. وكان راؤول يسكن قريباً جداً من المزرعة، عند بوابتها الخارجيّة تقريباً.

– وهل كان يبقى وحده في البيت ليلاً؟

– وحده لا. كان مع زوجته. كان لديهما دائماً تقريباً ضيوف. وفي الأخير، حين بات بابا عجوزاً، كانت هي تطلب من كاليستو أن يظلّ حارساً في الباب السفلي أو في بيت الكراج.

– حارس؟ أنا كنتُ أظنّ أنّه هو الذي كان يقوم بالجولة التفقدية في المزرعة قبل أن ينام.

– صحيح. هذا حين لا يكون سكران. لكنّ مس ماري كانت تشعر باطمئنان أكثر حين يكون الحارس موجوداً...

شعر كونده أنّ شيئاً ما لا يتفق مع تصوّره: كان كلّ شيء أسهل من دون ذلك الحارس الليلي الذي لم يكلمه عنه أحد، ولا حتّى تينوريو، المطلع على كلّ شيء. ربّما خانت توريبيو ذاكرته. ولذلك أصرّ على كلامه.

– ومن كان يتولى الحراسة في سنوات همنغوي الأخيرة؟

فتح توريبيو جفنيه على آخرهما محاولاً أن يعيد ضبط صورة محاوره، وبدا كأنّه بذل جهداً استثنائياً.

– هل أنتَ شرطيّ؟

– لا. لا. أنا كاتب...

– تبدو شرطياً سافلاً. تفعلُ الشرطة فيّ ما تفعله الركلة في المؤخرة. لا أطيقهم.

– وأنا أيضاً لا أطيقهم– عقّب كونده، ببرود، ولم يبتعد كثيراً عن الحقيقة.

– ممتاز...اسمع، بقيتُ في الحبس ثلاثة أيام بسبب شرطي اعتقلني في نزال غير قانوني. يا له من ابن قحبة!... وكأنّ أعوان الحكومة لا يشتركون في نزالات الديوك. ماذا سألتني؟

– سألتك عن الحارس. من كان الحارس في السنوات الأخيرة؟

– حين رحلوا، وحين انتحر بابا، كان هناك واحد يدعى إثناغا، زنجي عظيم، كان ابن عمّ راؤول. قبله كان كاليستو، الذي كان يقوم بكلّ شيء في المزرعة، إلى أن رحل ذات يوم...

– كانوا يبقون طويلاً في المزرعة، أليس كذلك؟

– وكيف لا يبقون إذا كان بابا يدفع لهم جيداً، جيداً جداً. ولذلك ما كان أحد يرغب في ترك العمل. أجرينا ذات يوم جرداً ووجدنا أنّه كان يعيل قريباً من ثلاثين فرداً...

– ولماذا ترك كاليستو العمل.

– لماذا، لا أدري، أمّا كيف، فنعم أعرف. ظلّ هو وبابا يتحدثان ذات عصر طوال ساعات في الطابق العلوي من البرج. كأنّهما ما كانا راغبين في أن يسمعهما أحد. بعد ذلك انصرف كاليستو. بل لقد رحل عن سان فرانثيسكو. لا بدّ أنّ شيئاً خطيراً وقع بينهما، لأنّهما كان يعرفان بعضهما بعضاً من سنين طويلة، حتّى من قبل أن يسجن كاليستو بعد أن أقدم على قتل رجل.

اهتزّ كونده لرعشة لم يشعر بمثلها منذ أيامه في الشرطة. هل صحيح أن أحدنا لا يستطيع إلا أن يكون شرطياً؟ سأل نفسه، مع أنّه كان يعرف الجواب: فلا الشرطي يتقاعد ولا ابن القحبة يتقاعد ولا اللوطي ولا القاتل.

– وما حكاية القتيل تلك، توريبيو؟

بلع العجوز ريقه على مهل، بينما فرك يديه. تملّك كونده شعور غير مؤكد بأنّ أحداً ما كان يتنصّت إليهما.

– لا أدري، كاليستو كان فيه شيء من الغموض والحدّة... قيل إنه تشاجر في أحد البارات وقد قُتل الرجل نتيجة ذلك. ظلّ محبوساً قريباً من خمس عشرة سنة، وقد شغّله بابا حين خرج من السجن، لأنّه كان يعرفه.

– وأين صار كاليستو؟

– لم أره ثانية. لا أعرف إن كان روبيرتو يعلم بشيء. هو كان قبطان مركب بابا وكانت أكثر حركته في هافانا. أظنّ أنّه قال لي ذات مرّة شيئاً عن كاليستو، لكنّي لا أذكر ماذا قال لي.

– وكاليستو مات بالتأكيد، أليس كذلك؟

– بالتأكيد، فقد كان أكبر منّي. لذلك...

صمت توريبيو وانتظر كونده ثواني. لا بدّ أنّ الحديث عن كلّ هؤلاء الموتى أمر لا يريح العجوز. نظر إلى عينيه الشاردتين في تفكير عميق، وقرر أن يهاجم.

– توريبيو، هل سمعت بالصدفة، هناك في بيخيّا، كلاماً عن رجل من مكتب التحقيقات الفدرالي؟

رفّت رموشُ العجوز.

– عن ماذا؟

– عن شرطيّ أمريكيّ. يسمونهم أف- بي- آي...

– هاااا، الأيفبيي، عجباً. نعم...لا، لا أذكر أنّي سمعت شيئاً عن ذلك.

– أين كانت حظيرة الديوك في المزرعة؟

– أبعد قليلاً من البيت، بين مسلك العربات والكراجات. تحت شجرة مانجو...

– شجرة عتيقة تحمل مانجو أبيض؟

– نعم، هي تلك...

– بالقرب من النافورة؟

– تقريباً.

كتم كونده فرحته. لقد أصاب الهدف وهو الذي رمى من دون أن يسدد.

– وحضرتك، توريبيو، لماذا كنت تدعو همنغوي بابا بينما تصفه بأنّه ابن قحبة؟...

ابتسم العجوز فبدت لثته الغامقة المرقطة ببياض.

– كان أغرب رجل في العالم. يبول في الحديقة ويضرط في أيّ مكان. يجلس أحياناً هكذا، وكأنّه يفكّر، ثمّ يبدأ ينقّر في أنفه ويستخرج المخاط بأصابعه ويعمل الكريّات منه. ما كان يطيق أن يقال له سيّد. لكنّه كان يدفع أكثر من الأمريكان الأغنياء الآخرين، ويطلب منّا أن ندعوه بابا... يقول إنّه والد الجميع.

– وأيّ فضل تدين به لهمنغوي؟

– فضل؟ لا أدين له بأيّ فضل: أنا كنتُ أؤدّي عملي على أتمّ وجه، وهو كان يدفع لي جيداً مقابل عملي، هذا كلّ شيء. كان يقول إنّه أحسن كاتب في العالم، ويجب أن يكون عنده أفضل مربّ للديوك. لذلك اعتذر منّي بعد الشجار الذي وقع بيننا.

– ومن كان موضع ثقته بينكم؟

– راؤول، بلا شك. فإن طلب منه بابا أن ينظف له مؤخرته فلن يتردد في تنظيفها.

وأكّد صوتٌ خفيض، صدر من الجانب الآخر من الحائط، شكوك كونده. كان هناك من يتنصت عليهما من دون أن يتجرأ ويطلّ من الباب. فمَن من عائلة توريبيو مهتمّ بذلك الحوار، المليء بالعبارات التي كررها العجوز مليون مرّة؟ الله أعلم. ولذلك واصل كونده حديثه موزّعا اهتمامه وانتباهه بين توريبيو والجاسوس المفترض.

– وهل كنتَ مرتاحاً هنا في المزرعة؟

– بعد الشجار، نعم. صار معلوماً لديه أنّني رجل وصار يحترمني... علاوة على أنّك تجد هناك أشياء تسعدك.

– مثل ماذا؟

– أشياء كثيرة... لا أنسى مثلاً صبيحة رأيتُ الممثلة الأمريكيّة تلك، صديقته، التي كانت تأتي دائماً إلى المزرعة.

– مارلين ديتريش[29] ؟

29– Marlene Dietrich (1901–1992). ممثلة ومغنية أمريكية من أصل ألماني.

- أمريكية شابّة...

- آڤا غاردنر[24]؟

- اسمع، هو كان يناديها «بنيّتي» وأنا كنتُ أسميها (لاغاييغا)، لأنّها كانت شديدة البياض وكان شعرها أسود فاحماً[30]. رأيتها يوماً تسبح عارية في المسبح. كانا كلاهما عاريين. أنا كنتُ أبحثُ عن عشب يابس لأصنع عشاً للطيور فبقيت مبهوتاً. وقفت «لاغاييغا» عند حافة المسبح وبدأت تنزع ملابسها، حتّى بقيت بالسروال الداخلي. وبدأت، وهي على تلك الحال، تتكلّم معه، وكان هو في الماء. يا لنهديها... وقبل أن تقفز إلى الماء، نزعت سروالها الداخلي أيضا. أيّة بنتٍ كانت ابنة بابا تلك!

- وهل كان السروال أسود؟ - نسي كونده، وهو يحاول تعرية ذكراه عن آڤا غاردنر، الجاسوس الذي كان يسترق السمع.

- وكيف عرفتَ ذلك؟- سأل العجوز مستغرباً.

- لأنّي كاتب. الكتّاب لهم اطلاع على بعض الأمور، أليس كذلك؟ وهل كانت جذابة؟

- جذابة؟ ماذا تقول؟ أكثر من جذابة، كانت ملاكاً، أقسم لك بروح أمّي أنّها كانت ملاكاً... يا لبشرتها... ليسامحني الربّ، لقد انتصب عضوي وبات كالجمرة: «لا غاييغا» هكذا، كما خلقها ربّها ـ ببشرتها الناعمة وثدييها وشعر عانتها نصف الأشقر، اللمّاع... كان ذلك فوق الوصف... بعد ذلك، وحين بدآ يداعبان بعضهما بعضاً في المسبح، انصرفتُ. فقد كان ذلك شيئاً آخر.

- نعم، شيء آخر. والسيّدة؟

- لا بدّ أنّ مس ماري كانت تعلم بمغامرات بابا. جاء ذات مرّة إلى المزرعة بأميرة إيطالية صغيرة كان قد جنّ بها. ترك من أجلها صيد السمك وترك نزالات الديكة وترك الكتابة وترك كلّ شيء. كان يمضي يومه وراءها، كالكلب السائب، وحين كان يتكلّم معنا كان يبدو عصبياً دائماً... أمّا مس ماري فما كانت تتفوه بكلمة. فقد كانت تعيش كالملكة. وهذا هو المهم.

30- صفة Gallego / Gallega تطلق في أمريكا اللاتينيّة على الإسبان عموماً وإن كانت الكلمة تدلّ على سكّان إقليم Galicia الكائن في الزاوية الشماليّة الغربيّة من شبه جزيرة إيبريا.

أشعل كونده سيجارة أخرى وأغمض عينيه: حاول أن يتخيّل ستيربتيز آڤا غاردنر، وأحسّ برعشة في ساقيه. فتلك الصورة الرائعة لن تلبث أن تصبح عدماً: فقد مات همنغوي، وماتت آڤا، وتوريبيو ألتوثاو في سبيله إلى الموت. والسروال الأسود، هل سيظلّ خالداً؟

– أنا ذاهب، توريبيو، ولكن قلّ لي شيئاً... همنغوي هذا، الذي صرع الأسودَ وجندلَ السباع وقتل الديوك، هل كان يمتلك خصيتين تكفيان ليقتل رجلاً؟[31]

حرّك العجوز بدنه قلقاً، ورمّش عينيه وركّز نظره مجدداً في كونده.

– انظر، قد تكون كاتباً، كما تقول، لكنّك شرطيّ أيضاً. لن تخدعني... على أيّة حال، سأردّ على سؤالك. لا. لا أظنّ ذلك: هو كان شاطراً في الصراخ، في عرض عضلاته على الحيوانات، في الاستعراض أمام الناس لكي يصدّقوا أنّه بطل صنديد.

ابتسم كونده وسار، محاولاً ألا يحدث ضجيجاً، ثلاث خطوات وأطلّ من باب البيت. كانت الصالة الصغيرة فارغة:

– وهل كان ابن قحبة حقاً؟

– كان كذلك حقاً. وهل يمكن لرجل يعجبه أن يقتل ديك مصارعة بتلك الطريقة إلا أن يكون ابن قحبة. كان كذلك بلا شك.

***

حمل التومسون على ظهره، وبعد أن تغلّب على تصلّب مفاصله وقف على ركبتيه وتناولها. كان يعرف ماذا تكون تلك القطعة، مع ذلك فقد وجّه إليها المصباح. تلألأ الشعار ولمع صفُّ الأرقام والأحرف الثلاثة فوق الشارة المعدنية الفضيّة اللون، المثبتة على قطعة من الجلد. نظر حوله كما ينظر حيوان شمّ رائحة الخطر، وتذكّر ما قال له راؤول حول نباح *بلاك دوغ* وتوتره. هل وطأ أفراد من الأف بي آي أرض مزرعته؟ هل من تفسير آخر لوصول تلك الشارة إلى ذلك المكان الأقرب إلى البيت منه إلى المدخل؟ هل عاد أولاد القحبة أولئك إلى مراقبته؟ كان يعرف أنّ رجال مكتب التحقيقات

31– «امتلاك الخصيتين» في الإسبانية كناية عن الشجاعة.

الفدرالي يضعونه على قوائمهم منذ الحرب الأهلية الإسبانية، خصوصاً بعد أن نظّم بمركبه عملية مطاردة للغواصات النازيّة المبحرة في شواطئ كوبا، حين كان على وشك أن يكتشف مَن يزوّد الألمان بالمحروقات وفي أيّ مكان من الجزيرة. كان هؤلاء بالذات هم من أعلن عن انتهاء العمليّة، زاعمين أنّ تقاريره غامضة وأنّهم يصرفون الكثير من البنزين. يعلم أيضاً أنّ إدغار هوڤر[32] حاول أن يتهمه بأنّه شيوعي، أيّام حملات التطهير التي نظمها ماكارثي[33]، لكنّ أحداً ما أقنعه بضرورة استثناء أسطورة أمريكية من قدره ووزنه من حملات الملاحقة تلك. لكنّ تلك الشارة التي عثروا عليها في مزرعة يملكها كانت تمثّل إنذاراً. ولكن، إنذاراً من ماذا؟

رفع بصره ونظر إلى أنوار هافانا البعيدة، الممتدة نحو ذلك المحيط الذي بدا مثل بقعة مظلمة. إنّها مدينة واسعة وعميقة، تعيش وهي تدير ظهرها للبحر. مدينة لم يعرف منها إلا بعض الأنحاء. كان يعرف شيئاً عن بؤسها وعن ترفها، المتلازمين غير المتناسبين؛ عرف الكثير من باراتها ومن حظائر ديوكها، وكانت ميداناً لأشجانه ومتنفساً لانفعالاته؛ وعرف الكثيرين من صياديها ومن بحرها، وأنفق بينهم أياماً كثيرة من أيّام حياته؛ وكان يعرف كم هو ضروري ألمها وكم هو لازم غرورها. ولا شيء أكثر: على الرغم من السنوات الكثيرة التي عاشها في تلك المدينة، التي لها روح امرأة، والتي احتضنته بكلّ الودّ والحبّ منذ زيارته الأولى لها. لكنّه، وكعادته مع كلّ شيء وفي كلّ حالة، لم يحسن تقدير حبّ من يحبّه حقاً، كما لم يحسن مقابلته بالمثل. عيبٌ فيه قديم ومؤسف، لا علاقة له بالمظاهر ولا بالشخصيّات، لطالما عزاه إلى طبع منغلق اتسم به والداه، ذانك الشخصان القريبان المجهولان، بحياتهما المغلّفة بتزمّت منافق. لم يستطع يوماً أن يشعر بالحبّ ناحيتهما، بعد أن أفسدا، وإلى الأبد، قدرته على الشعور بالحبّ. الحبّ الطبيعي والبسيط.

32- John Edgar Hoover (1895-1972). أوّل رئيس للـ FBI وقد تولّى المنصب على مدى 37 سنة.

33- Joseph MacCarthy (1908-1958). نائب جمهوري أمريكي. عرف بسياسته المعادية للشيوعية وإجراءاته التي استهدفت المثقفين الميالين للأفكار اليساريّة بين 1947 و1957.

نبح *بلاك دوغ* فقطع عليه خيط أفكارِه. راح الحيوان يفرّغ توتره في حفرة من حفر المنحدر الذي يبدأ عند حافة المسبح، عند حدّ المزرعة تقريباً. كان ينبح بإلحاح غريب. وانضمّ الكلبان الآخران، اللذان قدما من البوّابة، إلى الكونشيرتو. حشر الشارة في جيب سرواله البرمودا وحمل الرشاشة وعيناه مثبتتان في جوار المزرعة. تعال، أيّها السافل، وابحث عن شارتك، سأجندلك، همهم، وهو ينزل من المنحدر ويصفّر للحيوان. توقف النباح وظهر *بلاك دوغ* وهو يهزّ ذيله ويقبع كالخنزير.

– ماذا جرى، أيّها العجوز، هل رأيته؟– سأله وهو ينظر إلى الأعشاب على جانبي السياج–. أعرف أنّك كلب حراسة شرس...لكنّي أظنّ أن لا أحد هنا. لقد انصرف السافل. لنبحثْ عن كاليستو.

عاد إلى المسبح عبر طريق مختصر يؤدي، مروراً بين الكزوارينات، إلى طريق المزرعة الرئيس لأنّه يوفّر الالتفاف الذي على السيارات أن تؤديه. كان الجو لطيفاً تحت تلك الأشجار الشامخة العريقة. وسار الاثنان مثل صديقين حميمين: كانا قد تعارفا عام 1941، حين زار هو ومارثا المزرعة للمرة الأولى وقرر حينها شراءها، بعد أن صارت لديه قناعة بأنّ هافانا مكان مناسب للكتابة وبعد أن بدت له تلك المزرعة، التي لا تبعد عن المدينة كثيراً، مثاليّة. وهذا ما كانته المزرعة فعلاً. لذلك شغله كثيراً مصيرُ تلك الأشجار حين تلقّى، وهو حاضر إنزال النورماندي عام 1944، خبر الإعصار المدمر الذي ضرب هافانا. حين عاد في العام التالي، وتأكد له أنّ جميع رفاقه الصامتين تقريباً ما زالوا أحياء يرزقون، تنفس الصعداء. فذلك المكان المناسب للكتابة، يمكن أن يكون مناسباً للموت أيضاً، حين تحين ساعة الموت. لكنّ المزرعة، من دون تلك الأشجار، ما كانت تساوي شيئاً.

شغله التفكير في الموت عن اكتشافه ثانية. ما الذي يجعلكَ تفكّر في الموت؟ سأل نفسه وتذكّر أنّ ما يميّزه عن غيره أنّه صاحب تجربة فريدة، فقد مات في نظر الناس حين سقطت به الطائرة بالقرب من بحيرة فكتوريا، أثناء آخر سفاري له في أفريقيا. وكما وقع لبطل موليير[34]، فقد سنحت له حينها

34– يشير إلى آرغان، بطل مسرحية موليير «المريض الوهمي» *le Malade imaginaire*.

فرصة التعرّف على حقيقة مشاعر الكثيرين ممّن عرفهم. لم تعجبه التعليقات التي نشرت في العديد من الصحف حول موته، واكتشف أنّ عدد الأشخاص الذين لا يحبونه، وخصوصاً في وطنه الأم، فاق توقعاته. لكنّه تقبّل تلك الأحكام الجائرة بوصفها انعكاساً صادقاً لعلاقته بمحيطه وصدى لتراث بشري يتلخص في أنّ الإنسان لا يطيق نجاح أخيه الإنسان. مع ذلك، فقد منحته تلك الميتة الكاذبة شعوراً بالحريّة سيستطيع معه أن يعيش بانتظار الميتة اللاحقة. ومنذ تلك اللحظة، باتت الطريقة التي سيلقى فيها حتفه واحداً من هواجسه، خصوصاً بعد أن فاته أن يموت في عزّ شبابه، وعلى نحو بطولي. بدأ جسمه المتعبُ بالنحول. وصار يتبوّل بصعوبة. ضعف بصرُه وثقل سمعُه. وصار ينسى ما علمه وتعلّمه. يعاني من ارتفاع الضغط. وصار عليه أن يلتزم حمية في الطعام واقتصاداً في الشراب. وبدأت علّة حنجرته القديمة تشتدّ عليه، حتّى بات الموتُ فكرةً تخفف عنه وطأة الممنوعات والآلام. ما من وجه شبه بين خشيته الموتَ وخشيته الجنون، فالموت عنده أهون بكثير من الجنون، ما كان يقلقه شيءٌ قدرَ توقفه المحتوم عن أعمال معينة. فعليه إذن، والحال هذه، أن يعود إلى مصارعة ثيران لينتهي من كتابة *موت في الظهيرة*، أن يراجع ثانية رواية *جزر في الخليج*، وينتهي من جنة عدن الملعونة، التي طال عهدها واستطال. خطط أيضاً لرحلة أخرى بين خلجان شاطئ كوبا الشمالي والصعود حتّى «بيميني» والعودة إلى «كايو ويسو»، الموبوء بالنصّابين وقارورات الرون والويسكي. وراقت له فكرة عن سفاري جديد إلى أفريقيا، بل فكّر في إمضاء خريف في باريس. أشياء كثيرة، ربّما. عليه أن يقرر أيضاً، قبل أن تحين منيّته، إن كان سيأمر بحرق وليمة متنقلة أم لا[35]. إنّه كتاب رائع وصادق، لكنّه يتكلّم عن أشياء بالغة التحديد، ستذكر مستقبلاً، بكلّ تأكيد. شعور مزعج كان قد أجبره على الإبقاء على المخطوطة، بانتظار ضوء كفيل بأن يوضّح له مصيرها ويحسم أمرها: المطبعة أو النار.

صرخت كيتي كانيل، صديقة زوجته الأولى، هايدلي[36]، في وجهه ذات

35- *Moveable Feast* أو *París era una fiesta* أو «إيحاء باريس»، وقد كتبها من وحي حياته في باريس.

36- هايدلي ريتشاردسون (1891-1979). كاتبة أمريكيّة. زوجته بين عامي 1921 و1927.

مرّة: إنّ قابليته على الإساءة إلى من ساعده تثير اشمئزازها. وكم تعامل بحقد وأنانية وخبث وقسوة مع من مدّوا له يد العون! ولا شكّ أنّ كيتي محقّة في ما قالت. ما كان عليه أن ينتهز استذكاره باريس ويتذكر سنوات الجوع والعمل والسعادة، فيحمل على جيرترود ستين[37]، حتّى لو كانت تلك العجوز الماكرة صاحبة الوجه الذكوري تستحقّ ما قاله في حقّها. ولا أن يذكر سكوت[38] المسكين بسوء، حتّى لو افترضنا أنّه يضيق ببروده وعجزه عن أن يتصرّف كالرجال، ويستاء ممّا تحكيه الخرفة الخبيثة زيلدا فيتزجيرالد عن حجم عضوه. ولا أعرف على وجه الدقّة لماذا هاجم العجوز دوروثي باركر والمنسيّ لويس بلومفيلد والأحمق فورد مادوكس فورد[39]. مع ذلك، فقد أحسن إذ سكت على قصّة نهاية صداقته مع شيروود أندرسون[40]، بعد أن جهّزه هذا بالرسائل والتوصيات والعناوين التي أعانته على أن يمدّ جسوراً في باريس ما بعد الحرب، باريس التي كان يحتاج إلى أن يعرفها. وكم كان دنيئاً حين سخر من معلمه القديم للتملّص من ناشريه، بعد أن تعاقد معهم على نشر كتبه الجديدة عندهم، وإن نال مكافأة مجزية من ناشريه الجدد. ولم يفلح قراره في ألا يعيد طبع روايته سيول الربيع في مداواة الطعنة التي سدّدها إلى ظهر الرجل الذي تعامل معه بكل طيبة وأمانة[41].

كانت صورته قد تعاظمت قبل ذلك بعشر سنوات، حين رفض أن يُنتخب عضواً في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب. ودار الكلامُ عن تمرده

37- Gertrude Stein (1874–1946). روائية وشاعرة أمريكيّة. انتقلت إلى باريس عام 1903، وأقامت هناك صالوناً أدبياً كان ملتقى رواد الحداثة في الفن والأدب ومن بينهم همنغوي.

38- سكوت فيتزجيرالد (1896–1940). أحد أبرز الروائيين الأمريكان. وزيلدا هي زوجته.

39- دورثي باركر (1893–1967). شاعرة وكاتبة أمريكية. لويس بلومفيلد (1906–1984). فورد مادوكس فورد (1873–1939) روائي وشاعر وناقد إنكليزي.

40- من روّاد الرواية الواقعيّة الأمريكية. (1876–1941). أثّر في همنغوي وجيله.

41- كتب همنغوي هذه الرواية القصيرة عام 1926 في محاكاة سخر بها من شيروود أندرسون في رواية *الضحكة السوداء*. وقد تعمّد ذلك ليُرفَض عملُه ويُفسخ عقده مع ناشره وينتقل للعمل مع ناشرين آخرين.

الدائم، وعن ثورته الأبدية، وعن أسلوبه في العيش وفي الكتابة بين مزرعة في هافانا وحرب في أوروبا، بعيداً عن الأكاديميات وعن محافل الأدب والفن. كان ذلك هو ما أنقذه من المحرقة المكارثيّة التي أرادت الأف بي آي ورئيسها، الكريه هوفر، أن يلقياه فيها. مع ذلك، لم يكن لأحدٍ أن يتصوّر أنّ سبب رفضه ذلك الترشيح هو نفوره من كتاب آخرين من مثل دوس پاسوس وفولكنر، على وجه الخصوص، وعدم تحمّله قربه منهما. كان بطريرك الجنوب المتعجرف قد هاجمه بلا هوادة في موضع يؤلمه حين نعته بالجبان، وحين وصفه بأنّه *الأقل فشلاً* بين الكتاب الأمريكان الحديثين، لكن السبب في *فشله الأقلّ* يعود، قال ابن القحبة، إلى أنّه جبان فنّياً. ولكن، هل يوصف بالجبن من حرّر اللغة الأمريكيّة من كلّ تخفيف وتلطيف وتجرأ على الكلام عن خصيتين حين يتطلّب الأمرُ الكلام عن خصيتين؟ ولماذا لا يتكلّم عن جُبن سكوت فيتزجيرالد؟ وماذا عن دوس الرعديد...؟ ألم يهرب من القتال في صفوف الجمهوريين، حين كانت الحاجة ماسّة إليه؟ أليس في ذلك دليل قاطع على جبنه؟ أليست الحرب ميداناً تُختبر فيه الرجولة. إنّ تقديم حياة شخص على مصلحة شعب جنونٌ، وجنونٌ قولُه إنّ أذرع ستالين الطويلة هي التي قتلت روبليس[20]. صحيح أنّ ستالين تحالف في النهاية مع النازيّين باسم الثورة البروليتاريّة التي صادرها، وغزا فنلندا وجزءاً من بولندا وقتل جنرالاتٍ وعلماءَ وكتاباً وآلافاً من العمال والمزارعين وبعث إلى معسكرات الاعتقال بكلّ من لم يجارِ خططه ولم يصفق بحرارة لاسم القائد. وربّما كان صحيحاً ما أشيع عن أنّه استولى على خزين إسبانيا من الذهب وعلى الأموال التي تبرع بها الكثيرون - وهو واحد منهم- لمصلحة الجمهوريّة الإسبانية...، ولكن من غير المنطقي أن يتهم بقتل مترجم نكرة من مثل روبليس؟ كانت عقليّة أولئك الكتّاب تثير نفوره، ولذلك اختار أن يتقرّب من رجال بسطاء حقيقيين: صيادين ومصارعي ثيران ومحاربين، يستطيع أن يتحدّث معهم عن الشجاعة وعن الإقدام. ثمّ إنّ شيئاً في داخله كان يمنعه من أن يتصالح مع من كانوا أصدقاءه الصدوقين ثمّ ما عادوا أصدقاءه وما عادوا صدوقين: لم يسمح له عقله ولا قلبه بالتصالح معهم، وكان له في ذاك عقاب على عجرفته وتعصبه الذكوري في الكثير من مظاهر حياته.

وخلاصة القول أنّه لم يكن يريد أن يرى بالقرب منه كتاباً ولا سياسيين. ولذلك بدأ يتجنّب الكلام عن الأدب. فإن سأله أحد عن أعماله كان يردّ: «أعمل جيداً»، أو ربّما قال: «كتبتُ اليوم أربعمئة كلمة»، أمّا عدا ذلك فلا قيمة له ولا معنى، فقد كان يعلم أنّ ابتعاد الكاتب يتناسب طردياً مع عزلته. ومن هنا تعلّم أنّه هكذا أفضل، وأنّ عليه أن يدافع عن تلك الوحدة: الكلام عن الأدب مضيعة للوقت، وبقاء الكاتب بمعزل عن الآخرين خير وأحسن. هكذا يجب على الواحد منّا أن يعمل لأنّ الوقت ينفد، وإن فرّطنا فيه فسنألم وسنندم، ولات ساعة مندم.

لذلك رفض السفر إلى استوكهولم لحضور احتفال تافه ومستهلك، من أجل تسلّم جائزة نوبل. إنه من المحزن أن تمنح جائزة لمن لم يطلبها، ومن البائس أن تُرفض في حركة فجّة مفضوحة: ذلك هو ما تمنّى أن يفعله، فما عدا مبلغ الستة والثلاثين ألف دولار الدسم، ما كان ليهتمّ بتقلّد ميدالية يحملها سنكلير لويس وفولكنر. كم كان يتمنّى أن يتمرّد ويرفض الجائزة! لكانت سمعة المتمرد التي عُرف بها طالت النجوم. أمّا ما كان يريح في تلك الجائزة فهو أنّ الأدباء الذين لم يتسلموها يعدّون على أصابع اليد الواحدة: وولف ودوس وكالدويل والمسكين سكوت والسحاقية كارسون ماكولرز[42]، تلك الجنوبية التي كانت مستعدة لممارسة ميولها الجنسيّة تحت قبعة لاعب بيسبول. ويريحه أيضاً، بالطبع، أن يكون الكاتب على حق. أمّا أن يقتني بدلة فاخرة ويتجشّم عناء السفر تلك المسافة لمجرد إلقاء خطبة، فتلك هاوية لم يكن مستعداً للطفر من فوقها. توسل بأسباب صحيّة مردّها الحوادث الجويّة التي تعرض لها في أفريقيا، وحين تلقّى الشيك والميدالية الذهبية، سدّد ديونه وأرسل بعض النقود إلى عزرا باوند[43]، الذي كان خرج من مصحّ عقلي، وسلّم الميدالية إلى صحفي كوبي لكي يضعها في مصلّى معجزات عذراء المحبّة النحاسية: التفاتة جميلة عادت عليه بشعبيّة كبيرة وقربته من الكوبيين، الحالمين والعاطفيين، ومن السماء، بضربة واحدة.

42- Carson McCullers (1917-1967). كاتبة رواية ومسرح وشاعرة أمريكية. عرفت بغرابة أطوارها وبمثليتها الجنسيّة.

43- Ezra Pound (1885-1972). شاعر وناقد أمريكي.

– كانت ضربة معلّم، أليس كذلك، بلاك دوغ؟

هزّ الكلب ذيله من دون أن ينظر إليه. فقد كان يحرص على أن يؤدي مهمته في حراسة سيّده على خير وجه، وكان انتباهه في تلك اللحظة منصباً على بوم ينعق في أعلى شجرة ملكيّة. البوم عند الكوبيين طائر مشؤوم، وكم تأسّف صاحبنا أنّ الوقت كان متأخراً، وإلا لأطاح برشقة واحدة من التومسون بكلّ الشؤم، بل لاستطاع ربّما أن يتخلّص من دخيل متطفل ينتمي إلى الأف بي آي. ما الذي يبحث عنه أولاد القحبة هؤلاء داخل مزرعته؟

علا صوت الموسيقى في نهاية الطريق القصير المشجّر. كان كاليستو يقوم بدوريته الليلة بصحبة الراديو واثنين من كلاب المزرعة. لم يكن يفهم قدرة الكوبيين تلك على إمضاء ساعات وساعات في سماع الموسيقى، ولا سيما أغاني البوليرو المسيلة للدموع وأغاني الرانتشيرا المكسيكية التي كان كاليستو مفتوناً بها. وما أكثر الأشياء التي ما كان يفهمها في الكوبيين.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

-4-

شاهدها وهي بعدُ عند حافة المسبح. كانت ترتدي روباً خفيفاً مورّداً وتطلق شعرها الذي سقط على كتفيها. بدا له شعرها أفتح ممّا كان يتذكّر، واستمتع من جديد بحُسن وجهها ورشاقة جسمها. قالت شيئاً لم يسمعه أو لم يفهمه، ربّما بسبب الضوضاء التي كانت تحدثها ذراعاه وهو يحركهما في الماء كي لا يغطس. أحسّ بهما ثقيلتين، فكأنّهما ليستا ذراعيه. عندها خلعتْ روبها. لم تكن ترتدي تحته بدلة سباحة، بل سُتياناً وسروالاً داخلياً، أسودين شفيفين مشغولين بالدانتيل. الستيان مثيرٌ لأنّه يشفّ عن حلمتين ورديّتين. انتصب عضوه فوراً وفجأة وعمودياً، وهو ما لم يحدث له من قبل. واستمتع إذ أحسّ برغبة جنسيّة جارفة. كانت هي تنظر إليه وتحرّك شفتيها، لكنّه ما زال لا يسمع ولا يفهم ما تقول. ما عادت ذراعاه ثقيلتين، ما عاد يهمّه غير التحديق في حركة المرأة والاستمتاع بانتفاخ عضوه، المتجه صوب هدفه، وكأنّه سمكة خرمان تُضمر شرّاً: كان يقف عارياً، في الماء. رفعتْ يديها إلى ظهرها ونزعتْ بمهارة أنثويّة مدهشة ومثيرة حمّالة الستيان تاركة ثدييها مكشوفين عاريين: يا لهما من ثديين مدوّرين مكورين مكتنزين، تتوجهما حلمتان من لون وردي غامق. نبّهته سرعة انتصاب عضوه إلى ثورته واهتياجه. حاول أن يناديها، لكنّ مانعاً منعه. مع ذلك فقد أفلح في أن يحوّل بصره عن ثدييها ليركز، من خلال السروال الأسود الشفاف، على سواد أكثر إثارة وخطراً. وضعت يديها على وركيها وراحت أصابعها تتسلل إلى ما كان يتوارى تحت النسيج الرقيق. أطلّ شعر عانتها، أسود فاحماً لمّاعاً، مثل قمّة دوّامة عاصفة تولد في السرّة وتزحف بين الساقين. لم يستطع أن يواصل النظر: اجتهد للتركيز، لكنّه أحسّ بسيل

يتدفق منه، وشعر بحرارة سائله المنوي بين فخذيه وبرائحته التي توهم بمذاق حلو مستطاب.

- اللعنة!- قال أخيراً. وأدرك أنّ أيّ جهد ما عاد مجدياً، فسمح لبقايا سائله بالخروج متدفقاً. فتح عينيه ونظر إلى السقف حيث كانت المروحة تدور وتدور: لكنّ شبكيتيه ما زالتا تحتفظان بصورة آڤا غاردنر لحظة كشفها عن مطلع جبل فينوسها. أنزل بتكاسل يده ليتحسّس نتائج تلك الرحلة عبر سماوات الرغبة: وعثرت أصابعه بعضوه، كان ما يزال صلبا، تغطيه حممُ بركانه، ولكي يستمتع بالراحة البدنيّة التي تلفّه، راح يمرّر يده، التي غمرها رحيق الحياة، فوق جلد عضوه الذي تقوّس، مستمتعاً ومنتشياً، مثل جروٍ عوّاء مشرد، قبل أن يقذف دفقتين أخريين في الهواء.

- اللعنة!- كرّر القول. ابتسم كونده، مسترخياً. كان في ذلك الحلم من المتعة والواقعيّة ما يقربه من فعل جنسي مكتمل الأركان، سوى أنّه لم يدم طويلاً. كان يتمنّى أنّ يطيل حفلة المجون تلك دقيقتين أخريين، ليجرّب كيف تكون مواقعة آڤا غاردنر، وقوفاً، على حافة مسبح، بينما تهمس هي في أذنه: «استمرّ، بابا، استمرّ»، وبينما تطبق يداه على مؤخرتها وتنحشر إصبع من أصابعه، أشجعها وأجرأها، في البوابة الخلفيّة لذلك الحصن المسحور.

فاجأه النعاسُ بعد الحمّام. واستعداداً للغوص في تلك الحكاية، أجّل قراءته الألف لرواية *الحارس في حقل الشوفان*، رواية سالينجر الحزينة الغنيّة، التي تختبر منذ سنواتٍ ذكاءه وطموحه الأدبي، وقرر أن يقرأ بدلها سيرة قديمة لهمنغوي حصل عليها أثناء سفراته التجاريّة. فتح، والكتاب تحت إبطه، كلّ النوافذ، وأدار المروحة السقفيّة وألقى بنفسه عارياً على فراشه. حين أحسّ بالملاءة تداعب مؤخرته، حاصرته ذكرى تمارا، الغائبة منذ وقت طويل، فذبل عضوه وذوى: فبين رغبته الجامحة في مضاجعتها مجدداً، والخوف من ألا يعاود ذلك ثانية أبداً، تغلّب الخوف. وماذا لو لم تعد تمارا؟ إنّ مجرد التفكير في احتمال خسارة المرأة الوحيدة التي لم يكن راغباً في خسارتها كان يُشعره بالضعف والمرض. فما أكثر ما خسر وما أكثر ما فقد، حتّى ما عاد في وسعه أن يحتمل المزيد. «لا تفعلي معي هذا، تمارا»، قال بصوت عال، وفتح الكتاب. كان يريد أن يستحضر سنوات

الكاتب الأخيرة، أن يلج إلى مخاوفه وهواجسه، أن يبحث في الدوافع التي حملته على أن يحشر بندقية الصيد في فمه ويفجّر رأسه. لكنّ نعاساً شديداً غشيه، وغلبه النوم، بعد خمس عشرة صفحة، كرّر الكاتب فيها خوفه من الجنون الذي رافقه لسنوات. غطّ كونده في نوم بدا كأنّ تبتله القسري وهوسه بسروال أسود لم يره، أجبراه عليه بانتظار أن يفاجئاه بمكافأة غير منتظرة.

وكانت الكارثة من الضخامة أنّه اضطر إلى دخول الحمّام من جديد. أزال الماءُ الباردُ عنه قذارات الرغبة وبقاياها، ووضعه أمام حقيقة ما كان قرأه قبل أن ينام: ربّما كان خوف همنغوي المرضي من الجنون، وعقدة الملاحقة تلك، التي تكفلت بتحطيم ذكائه في السنوات الأخيرة من حياته، السببَ الرئيس الذي قاده إلى الانتحار. قبل سنتين من انتحاره، بدأ يشعر بذلك الحضور القهري، الحريص على تعذيبه، والذي طالما عزاه إلى إجراء لمكتب التحقيقات الفدرالي مبنيّ على شكوك في تهرّب ضريبي. كان ضعف تلك الحجة يقويّ نظريّة مانولو: فالأمر أكبر من ذلك. لا بدّ أنّه شيءٌ له مرتبة السرّ. في الملف الذي تحتفظ به الأف بي آي عن همنغوي منذ أيام الحرب الأهلية الإسبانية، وخصوصاً منذ عملية «كروك فاكتوري» الاستخباراتيّة[44] ومغامرة اصطياد الغواصات الألمانية[15] - كانوا تقريباً عصابة من الصعاليك السكارى، يبحرون ببنزين مجاني أيام الحصة التموينيّة-، فُرضت الرقابة على خمس عشرة صفحة من ذلك الملف. قالوا «لدواعي الأمن الوطني». فماذا كان مكتب التحقيقات وهمنغوي يعرفان بعضهما عن بعض؟ وماذا عساها تكون تلك المعلومات الخطيرة التي تجبر هذا الطرف على الاحتفاظ بسرّ مؤبّد وتشعر الطرف الآخر بأنّه مطاردٌ ملاحق؟ هل لذلك صلة بتحرّيات همنغوي حول تزوّد الغواصات النازيّة بالوقود في الكاريبي أم إنّ الحكاية كلّها تدور حول الجثّة المجهولة والشارة المدفونة معها؟ كان كونده يزداد قناعة بأنّ تلك الشارة، التي تحمل ثلاثة أحرف، هي إصبع اتهام تبحث عن صدر تؤشر عليه. لكنّ تحرياته لا تفسّر

44- في عام 1942 أرسل مكتب التحقيقات الفدرالي FBI عميله جو لوكاس ليراقب همنغوي الذي كان حينها قد كوّن فرقة من «الجواسيس» للمساعدة في جهود الحرب المستعرة آنذاك.

كيف وقع عنصرٌ من عناصر الـ أف بي آي ضحيّة أوّل جريمة قتل يرتكبها همنغوي، وفي حدود عقار يمتلكه.

توجّه كونده بسرواله الداخلي إلى المطبخ، أعدّ القهوة وأشعل سيجارة ونظر إلى غلاف ذلك الكتاب، حيث بدت له صورة همنغوي، وهو بعد قويٌّ واثق ينظر إليه من إحدى نوافذ مزرعة «بيخيّا». «هل لك، أيّها الفتى، أن تخبرني: هل أنت من قتله أم لستَ أنت؟»، سأله. مهما كان دور الكاتب في تلك الجريمة، فإنّ ذلك يؤشر لبداية نهاية مفجعة: لقد أحسّ بأنّ مكتب التحقيقات الفدرالي يلاحقه، واقتنع بأنّ الفقر، وحتّى السرطان، يترصدانه. ضعف الرجلُ القوي وانهار وسقط، كأيّ رجل فقير تهاجمه الهواجس والاكتئاب. انتهى الأمر به في مصحّ عقلي، حيث أخضعوه لخمس عشرة جلسة من الصدمات الكهربائية، كان القصد منها أن ينسى خوفه المفترض وهوسه المتنامي- يا إلهي، اهتزّ كونده: وماذا يتبقى للكاتب بعدَ هواجسه وهوسه؟-. إنّ خمس عشرة صدمة كهربائيّة لكفيلة بحرق أيّ دماغ. خمس عشرة صدمة كهربائية ملأت بدنه بمضادات القلق ومضادات الاكتئاب. أخضعوه لحمية قاسية سجّلت انهياره وتدهوره. وأيّة غرابة في أن يُقدِم رجلٌ، لطالما فاخر بجروح الحرب التي يحملها، على إخفاء اسمه عند وصوله إلى مصحّ «مايو»؟ وكيف يصرّح باسمه في مكان ليس فيه ذرة من البطولة، بل إنّ كلّ ما فيه يشير إلى خراب لن يتوقّف إلّا بالقضاء على آخر ما تبقى لذلك الرجل من الثروة: عبقريته.

لا شكّ أنّ الشعور بالعجز والضياع الذي غرق فيه الكاتب العجوز، هزّ كونده هزّاً. وفكّر: ليس في ذلك ما يسرّ. فما أشبه ذلك بنزال على البطولة مع كيس ملاكمة. فالكيس خامد، قد يقاوم بعض الضربات، أو كثيراً من الضربات، لكنّه عاجز عن ردّ العدوان. إنّه ليفضّل، والحال هذه، أن يراه ذلك الأمريكي الضخم القذر ذو اللسان السليط السكير المتعجرف الشقيّ، الذي يبحث عن مغامرات وملاحم، ويكتب قصصاً عن مهزومين يكسب منها آلافاً من الدولارات التي تمكنه من شراء يخت ومزرعة في هافانا، والقيام برحلات صيد في أفريقيا، وقضاء إجازات في باريس والبندقية. إنّه يريد أن يرى الإله القويّ المزلزل، لا العجوز الذي هدّت الصدمات الكهربائية كيانه

وأفقدته ذاكرته حتّى مُنع عنه ما كان يشكل حياته وحرم من أعزّ ما كان يهوى ويحبّ: الكحول والأدب. وكيف يمكنه التفريط فيهما، فكّر كونده، وهو الذي لم يكن يستطيع إلا أن ينحاز، بدفع من ميوله ومعتقداته، إلى الكتّاب والمجانين والمخمورين.

أمّا الأنكى والأدهى فهو أنّ همنغوي كرّس البقيّة القليلة الباقية من صفاء فكره المضطرب المتعب للوم نفسه على ما لحقه من هزائم وواجهه من عوائق وعراقيل. صار يشوب أحاديثه، حين يصفو ذهنه، حزنٌ متنامٍ، حزنٌ سببه إخفاقه في صنع أسطورة له، بل لقد طلب من ناشريه أن يحذفوا من أغلفة كتبه أيّة إشارة إلى مآثره أو مغامراته. كان عجزه الجنسي، الذي بات واضحاً في الأوقات الأخيرة، مصدر عذاب آخر له، وخصوصاً حين تولدت لديه القناعة بأنّ عليه أن ينسى أدريانا إيفانسيتش[12] ويوفر على نفسه خيبة أمله فيها، وأن يكتفي، بدلاً من ذلك، بمتعة النظر إلى الشابة الحمراء المثيرة ڤاليري دامبي- سميث[10]. النظر فقط... كان يثقل عليه أيضاً شعوره بأنّه قدّم دائماً الحياة على الأدب، والمغامرة على الاعتكاف، فخان بذلك مثله العليا ولم يتفرّغ لفنّه، لذلك فقد احتفى به الجميع وعرفوه كتلة من العضلات والندب التي لا ينفكّ يعرضها ويستعرضها، تؤهله للوقوف بين عارضي الأزياء الذين يظهرون في مجلة فوغ ليعلن عن إحدى ماركات الجن، وتحويل بيته إلى محطة سياحيّة للمارينز في هافانا، والعيش في ظلّ شهرة خاطئة وباطلة، هي أنسب لراقصة استعراضات أكشن منها لرجل منصرف لحرب عدوّ شرس، محصّن ضد الرصاص، كما هي الكلمات. وها هو البطل تعوزه الشجاعة لمقاومة الحياة، في هذا العالم الذي صنعته يداه، وها هو يعلن، أخيراً، هزيمته. بدأ حينها بالحديث عن الانتحار، وهو الذي شنّع ذكرى أبيه الذي اختار أن يموت منتحراً. سقف الفم: سقف الفم هو النقطة الأضعف في الرأس. طلقة في سقف الفم لا يمكنها أن تخطئ، وبدأ، والمانليشر - الشوينير 256 في فمه، بالتمرن على نهايته، والترويج لها قبل موعدها.

كان كونده إبّان خدمته في سلك الشرطة، يحبّ الخوض في قضايا كهذه، قضايا يغوص فيها حتّى ينقطع نفسه تقريباً وحتى يفقد وعيه. قضايا

يمتزج بها حتّى تصبح له جلداً. وما الغرابة في ذلك؟ ألم يكن في أوقات أخرى شرطياً نشيطاً، رغم نفوره من السلاح والعنف والقمع، ورغم تحفظه على الصلاحيات التي يتمتّع بها منتسبو ذلك السلك لقمع الآخرين والتحكّم في مقدراتهم عن طريق بثّ الخوف واستخدام أدوات السلطة المرعبة. لكنّه يدرك الآن أنّه ما عاد غير كاريكتير محقق خاص رخيص في بلد ليس فيه محققون عامون ولا خاصون، وأنّه لا يعدو عن أن يكون استعارة سمجة لواقع غريب: فما هو، وعليه أن يقرّ بذلك، إلا رجلٌ بائس آخر، يحيا حياته الصغيرة، في مدينة تزخر بالرجال العاديين وبالكيانات التافهة، الخالية من أيّ مكوّن شعريّ، والمجرّدة، يوماً بعد يوم، من الأحلام. ومن هنا شعوره المقيم بأنّه لن يبلغ الحقيقة: إنّ من المستحيل، بعد كلّ ما جرى، معرفة إن كان همنغوي هو القاتل أو لم يكن. في ركن منزوٍ من أركان دماغه، ترسّخت لدى كونده قناعة بأنّ مردّ اهتمامه ليس إلا إشباع حسّ بالعدالة راسخ لديه لا يفارقه. فكلّ شيء في تلك القصة وصل متأخراً، والأخطر من ذلك أنّه كان آخر الواصلين.

فاجأه نباح الكلب وهو غارق في تأملاته. أحكم زرّ البنطلون وصاح: «ها أنذا قادم، صديقي»، وأخيراً فتح باب الشرفة.

– مساء الخير، أليس كذلك؟ كم مرّ من الوقت...

أقعى الكلب وبسط ذراعيه على فخذي كونده. لم يتوقف عن النباح، بل كان يطالب بما هو أكثر من كلمات اللوم. بدا شعره، وهو في الأصل أبيض وسرح، عسلياً كرملياً، وأحس كونده بقوّة جسمه حين داعب رأسه وأذنيه.

– بحقّ أمّك، *باسورا*، أنتَ مقزز. ولكن، أتدري أنّ من الحبّ ما قتل؟

لعق الكلبُ يدَ سيده قاصداً عامداً، شاكراً له المداعبة، وكانت تلك فيه عادة قديمة أجازها كونده منذ مساء الإعصار الذي التقى فيه *باسورا* في الشارع وأبرما من أوّل نظرة ميثاق الودّ بينهما، وعندها قرر كونده أن يحمله إلى بيته. وكما قررا، باتفاق مشترك، فإنّ كونده سيؤدي منذ ذلك اليوم دور السيّد: سيطعم *باسورا* كلما أمكنه ذلك ويحممه حين لا يكون لذلك من بدّ (هو الآن يوشك أن يفعل ذلك)، بينما يقدّم الكلب حصته من

العلاقة حباً وامتناناً، دون التخلّي عن حقه من الحرية الموروثة من جينات الكلب السائب.

– فعلاً. أنتَ كلبٌ جيد، لكنّ فيك شيئاً من الوقاحة والرعونة، تضيع منّي بين الحين والحين، لكنّك طيب الأصل... هيّا، تعال لنرى ما لديّ لك.

وجد في البرّاد قليلاً من الرزّ وبقيّة من مرق البزاليا وفضلة من علبة سمك. قلب كونده ذلك كلّه في الإناء، وخلطه وأخرجه إلى الشرفة على عجل تحت ضغط نباح الحيوان الجائع.

– تباً لك، صديقي، صبراً عليّ. هيّا. هنيئاً مريئاً.

تطلّع كونده مسروراً إلى الكلب، الذي التهم ما أمامه حتّى اخر حبة من الرزّ. ثمّ شرب الماء، بعد أن شبع من الأكل، وانطرح، من فوره، على جنبه لينام.

– يا لانبساطك...أراك غداً– قال الرجل وأغلق الباب.

خرج كونده إلى الشارع، وقد تهندم وتعطّر فكأنّه ذاهب للقاء خطيبته. كانت بوصلته تشير إلى بيت صديقه، كارلوس الفلاكو. إنّه يريد أن يقصّ أحلامه المبتورة ويشرح أفكاره المتزاحمة، فضلاً عن أن يملأ بطنه، كما ملأها *باسورا*، وما كان يعرف في العالم أذناً خيراً من أذن الفلاكو، ولا سحراً في الطبخ أفضل من سحر أمّه، خوسيفينا، القادرة بالخيال على قهر واقع التقنين المر الذي تعيشه جزيرة باتت محاطة، أكثر من أيّ وقت مضى، بالماء المالح من جميع نواحيها.

على الرغم من الحر، وجد الشوارع غاصة بالناس. بدا الجميع أسرى ضيق ما كان يجد متنفساً له إلا في الصراخ والحركات العنيفة والنظرات الماكرة. كانت الحياة توخزهم وترمي بهم إلى حرب يوميّة تدور رحاها في الهواء الطلق وعلى جميع الجبهات: فبينما يبيع بعضهم أغرب الأشياء وأعجبها، يشتري الآخرون، أو يحلمون بالشراء: وبينما يصبّ بعضهم آخر قطرات العرق وهم يقودون دراجاتهم الهوائية، يبتسم الآخرون، منتشين باردين، خلف كؤوس البيرة الباردة المعلبة التي يشترونها بالدولار؛ وبينما يخرج هؤلاء من كنيسة الحيّ، يغادر أولئك وكر اللعب الممنوع... شابتان،

بالكاد ترتديان السواد، تعملان أوتوستوب باتجاه وسط المدينة، مستعدتان لبدء عملهما الجسدي الذي تتقاضيان أتعابه بالدولار أيضاً. متسول، مقطوع الساق، يبيع أكياس نايلون، كيسين ببيزو. صبيتان تنزهان كلباً مسعوراً، وتحلمان بالنقود التي ستكسبانها من توظيف أنياب الحيوان. زنجي قوي، يحمل في رقبته سلاسل ذهبية مع صلبان وعذراوات من المعدن النفيس ذاته، تتعايش في انسجام هادئ مع قلائد مشعوذين بدائيّة، يركل العجلة المفرغة من الهواء لسيارة أولدزموبيل قديمة موديل 1954، بينما يلعن أمّ لا أدري من...حاول كونده عبثاً أن يضع نفسه في زحمة تلك الدوامة. ما يؤلم في الصورة أنّها حديثة، وإن بدت، في الوقت نفسه، نسخة رديئة من أيّة صورة من التي رآها همنغوي في تلك المدينة ذاتها، قبل نصف قرن. للمرة الأولى في سنوات حياته، التي تجاوزت الأربعين، شعر كونده أنّ شوارع حيّهم تبدو له غريبة، عدوانية معادية، أنّ غياب الألوان فيها والإسمنت والمكونات الأخرى ترمي به فوق البيوت، لكنّها ترمي أيضا بقلبه. إلى أين نحن ماضون وإلى أيّ قاع نسير...؟ إنّ ذلك الواقع المحزن الذي أمامه، نائماً منذ سنوات، أو متخمّراً في الظلام، يدخل في حالة انفجار وها هي سحابات دخانه ترسل بإشاراتها التحذيريّة. ليس من الضروري أن يكون شرطياً أو محققاً خاصاً، ولا حتّى كاتباً، لكي يدرك أنه لا أحدَ في تلك الشوارع، لا أحد إطلاقاً، يعنيه أن يكون همنغوي قتل أو لم يقتل رجلاً كان مصمماً على أن يسوّد له عيشته: فالحياة- والموت أيضاً- يسيران في طرق أخرى، أكثر وعورة وصعوبة، طرق بعيدة جداً عن الأدب وعن سلام «بيخيّا» الوهمي.

***

تحرّك بلاك دوغ والكلبان الآخران بعصبيّة نحو حدود المزرعة.

- هناك ما يثير هذه الكلاب- قال.

- إنّها ليست مرتاحة- أكّد كاليستو. جلسا على جذع شجرة ساقط، بالقرب من الطريق المؤدّية إلى البيت. من هناك، وعبر البوابات الخشبيّة، كان يرى الشارع الموصل إلى القريّة، ببيوتها الخشبية المأروضة وسقوفها المسودّة من زمن وشمس ومطر. في النهاية، هناك عند حانة فيكتور، تشاهد

سيارات تمر مسرعة عبر الطريق الرئيسة. أغلق كاليستو الراديو حين أحسّ باقتراب سيّده. كان يعرف أنّه يكره الموسيقى التي تعجبه.

- ألم تر شيئاً غريباً؟

- لا. تطلعتُ قبل قليل هناك... وأنتَ، إرنستو، هل لاحظت شيئاً؟

- لا، لكنّي وجدت هذا بالقرب من المسبح- وأخرج من جيب بنطلونه البرمودا شارة الأف بي آي.

- ما هذا؟

- إنّها شارة الشرطة الأمريكيّة. لا أدري كيف وصلت إلى هناك.

أبدى كاليستو قلقاً.

- الشرطة الأمريكيّة؟

- أنتَ لم تفعل شيئاً، كاليستو، أليس كذلك؟

- بالطبع لا. منذ أن خرجتُ وأنا أهدأ من طفل رضيع. لكنّي الآن أقلّ هدوءاً لأنّ الأمر مقلق. لا.

- وكيف وصلت هذه القذارة حتّى المسبح؟

- أنا هنا منذ الساعة التاسعة وعشر دقائق، ولم أر شيئاً.

- أظنّ أنّ هناك من يراقبنا. لابدّ أنّه...

- ولذلك أخرجتَ تلك الحديدة؟- أشار كاليستو إلى التومسون التي كان يحملها بين ساقيه ووضع أخمصها في التراب.

- لا، لا أدري لماذا أخرجتُها. كنتُ في طريقي لإعادتها وحفظها في البرج...

- اسمع، لا بدّ أنّ الأمر يتصل بمشكلة مع الثوريين. لا أحدَ يراقبك، إرنستو. ولماذا يراقبونك؟

- تذكّر أنّهم فتشوا بيتي مرّة.

- لكنّهم كانوا من الشرطة المحليّة، وكان السبب هو البحث عن السلاح. أمّا هؤلاء فمختلفون- وأشار كاليستو إلى الشارة- فماذا عساهم يريدون؟

- لا أعرف- قال.

يوماً بعد يوم تزداد الأمور التي لا يعرفها أو التي يكتشف أنّه لم يطّلع عليها قط. لاحظ أيضاً، ولعدة مرات، أنّه صار ينسى أشياء كان يعرفها. كان طبيبه فرّير ماتشوكا قد وصف له فيتامينات ونصحه أن يلغي الكحول، واعترف له مبتسماً: «أحياناً يحدث لي نفس الشيء. أنسى أيّ شيء... فنحن نشيخ، وقد بتنا مضعضعين».

– لكنّ هناك أشياء لا أنساها– قال.

نظر إليه كاليستو وابتسم. إنّه يعرف طريقة سيده في الكلام.

– أيّة أشياء؟

– أشياء.

لم ينس زيارته الأولى إلى «فلوريديتا» برفقة صديقه جو روسيل. كانا عائدين من رحلة صيد شاقّة، وكانا يريدان أن يغرقا في الكحول. أخذه جو إلى «فلوريديتا»، حيثُ التقيا كاليستو، الذي كان تعرّف عليه أثناء رحلاته إلى «كايو ويسو». ولطالما شكر لجو تلك الزيارة، لأنّه أحبّ ذلك البار من النظرة الأولى، وفضله على أماكن كثيرة من هافانا. كان «فلوريديتا» آنذاك مكاناً مفتوحاً على الشارع، فيه مراوح سقفيّة كبيرة، ومشربٌ خشبي رائع غامق لوضع الكؤوس وإسناد الأكواع ورمي الزهر أثناء اللعب، فضلا عن أنّ في إمكانهم أن يشربوا فيه الرون الجيد بسعر مقبول، وأن يأكلوا الجمبري الممتاز الذي ما يزال يحافظ على نكهة البحر. ثمّ إنّ البار يوفّر فرصة الاطلاع على كلّ ما يجري في المدينة: فالعاهرات والصحفيون، وهم زبائنه المعتادون، يتكفلون بوضع الزبائن الآخرين في صورة ما يجري. من حكاياتٍ سمعها عن الشرطة وتهريب الكحول والأفراد والعصابات التي تنشط في المدينة ولدت فكرة *أن تملك وألّا تملك*. وهناك علم، بعد سنتين، أنّ كاليستو كان مسجوناً لأنّه قتل رجلاً، وتأسف لذلك، فلطالما بدا له مهرّبُ الكحول ذاك رجلاً طيباً يتحفه بين الحين والحين بحكايات رائعة. وحين استقرّ في هافانا، صار من رواد «فلوريديتا»، مثل صديقاته العاهرات وأصدقائه الصحفيين، وفي البار الآن لوحة معدنية وضعت على شرف ما عبّ من شراب هناك، تشير إلى الرقم القياسي للدايكيري المستهلك في يوم واحد، إقراراً بوفائه للبار وإشارة إلى فوزه بجائزة نوبل. واختار هو «فلوريديتا»، في بادرة شكر

لذلك المحل الذي يقدم فيه أفضل دايكري في كوبا، وحيث للرواد أن يشربوا ساعات من دون أن يضايقهم أحد، ويتحادثوا بعيداً عن صخب تلك الموسيقى التي لا يستطيع الكوبيون العيش من دونها، لتكون مسرحاً لفصل طويل من روايته جزر *في الخليج*، تلك السيرة الذاتيّة المؤلمة التي احتار، وهو يكتب الصفحة الأخيرة منها، بين أن يتركها كما رسم لها وخطط، أو أن يتقدم خطوة أخرى ويعرض شكوكه حول هويّة المسؤولين الكوبيين الذين تورّطوا في بيع الوقود للغواصات الألمانيّة.

رأى أنّه كان محظوظاً إذ عثر على مكان كذلك البار، فقد وفّر عليه مشقة البحث عن أماكن أخرى ليعرف ما يريد معرفته عن هافانا. فهو في «فلوريديتا» و«كوخيمار» و«سان فرانثيسكو دي پاولا» يجد كلّ ما يحتاج معرفته عن المدينة: كيف يأكلون وكيف يشربون وكيف يحبّون وكيف يصطادون السمك وكيف يصارعون بؤس يومهم. أمّا بقيّة الأماكن فما كانت تهمّه، لأنّه كان واثقاً من أنها تشبه ما في باريس أو نيويورك أو هافانا. فالحياة في هافانا تبدو له فارغة جوفاء، وقد رفض منذ البداية أن ينخرط فيها: فما كان يقبل دعوة من أحد، ولا كان يستقبل في مزرعته أحداً من النابغين المحليين. بل لم يزر بيوت أصدقائه الكوبيين القلائل إلّا قليلاً، وظلّ على الهامش من جميع المشاكل المحليّة التي ما كانت تعنيه مباشرة. أمّا حفلات التكريم القليلة التي حضرها فقد حضرها على طريقته، كما فعل حين دعاه بعض الأغنياء من صانعي البيرة الكوبيين إلى حفلة نظموها، إذ لم يوافق على حضورها إلا برفقة جميع أصحابه من صيادي «كوخيمار»، الذين أكلوا ليلتها حدّ التخمة وشربوا حدّ الارتواء، وكلّ ذلك بفضل بابا.

ولم يخالط كتّاب الجزيرة ولا فنانيها، أوّلاً لأنّه ما كان يريد المزيد من الأصدقاء الكتّاب، ثمّ لأنّ المؤلفين الكوبيين، ما عدا اثنين منهم، لم يكونوا يثيرون اهتمامه، لا في أشخاصهم ولا في كتبهم. كان عالم أفضلياته الأدبية والثقافية مستقراً، ولم يكن يريد أن يحوّله إلى كابوس بتقريب هؤلاء منه. فما أكثر السكارى المخمورين في ذلك الديوان الشعري المداري، وما أكثر الهواة المتفرنسين، وما أكثر المجانين المتنكرين بزيّ الملهمين. هو محفلٌ، شأنه شأن كلّ محفل، فيه من الأعداء أكثر ممّا فيه من الأصدقاء، ومن

المعارضين أكثر ممّا فيه من المعجبين، ومن الحُسّاد أكثر ممّا فيه من الرفاق والأصحاب. فيه أشخاص لا يقولون إنّهم قادرون على الكتابة، بل يقولون إنّهم كتّاب، وفيه من الانتهازيين والزاحفين والطفيليين وأبناء القحبة الكبيرة أكثر ممّا فيه من الأشخاص المنصرفين بإخلاص وببساطة إلى الأدب. وهو ما يحدث أيضاً في نيويورك وفي باريس. لقد تعرّف على عدد قليل من الكتاب الكوبيين، على المجنون سيربا وعلى نوباس كالبو المنفّر[45]، عن طريق أعمالهم والحديث مع بعضهم، لكنّه ما كان في حاجة إلى أن يتبادل أفكاره أو قراءاته معهم ليتمكّن من الحصول على المادة الأدبية الخام التي يحتاجها في عمله. ثمّ إنّه كان يعلم أنّ الكثيرين منهم كانوا ينتقدونه بسبب ميله إلى الابتعاد والطبقيّة: بعضهم حسداً وبعضهم حقداً، بل إنّ بعضهم كان متحاملاً عليه لأنّه تلقّى إهانة منه. لكنّه ما زال يرى أنّ عدم شعوره بالحاجة إلى الاختلاط بتلك الشلّة كان واحداً من قراراته الصائبة. ففي مقدور الواحد، بلا شكّ، أن يعيش في كوبا من دون أن يقرأ لكتّابها، بل يستطيع، ومن دون أن يقرأ لهم، أن يتبوأ منصب رئيس الجمهوريّة.

- ما رأيك فيّ، كاليستو؟

تطلّع إليه الرجل لحظةً.

- لا أفهمك، إرنستو.

- هل أنا أمريكي متعجرف؟

- من تفوّه بهذه السخافة؟

كان يغضبه أن يُقال إنّه يعيش في كوبا لأنّ الحياة فيها رخيصة، كما يفعل الأمريكان التافهون المتعجرفون، الذين يسيحون في الأرض ويشترون بدولاراتهم كلّ شيء. لكنّ حسابات مس ماري الأخيرة أظهرت أنّه أنفق في الجزيرة، خلال عشرين سنة، ما يقرب من مليون دولار، صرف جزءاً كبيراً منها على الكوبيين الاثنين والثلاثين الذين كانوا يعيشون ممّا كان يهبهم هو من مال. لقد صرّح للصحافة في أكثر من مناسبة أنّه في

مكتبة
t.me/t_pdf

45- Enrique Serpa (1900-1968) وNovás Calvo (1903-1983) كاتبان وروائيان كوبيان.

داخله كوبي، كوبي حقيقي، كوبي متشرد، قال، متشرد مثل بلاك دوغ وبقيّة كلابه، ثمّ ضرب ضربته الكبرى حين قرّر أن يهدي ميدالية نوبل إلى عذراء النحاس، حامية كوبا وشفيعة صيادي «كوخيمار»، فليس أحرصَ منها على ميدالية يدين بها إلى رجال بسطاء أوحوا له بحكاية صيّاد صارع تيّارات الخليج طوال أربعة وثمانين يوماً من دون أن يصطاد سمكة، بعد أن باتت مياهه ملحاً أجاجاً.

ربّما تمنّى العيش في إسبانيا، حيثُ النبيذُ والثيران والضفاف المسكونة بسمك التروت، لكنّ الحرب الأهليّة ونهايتها المشؤومة رمتا به إلى الجزيرة، لأنّه إن كان واثقاً من شيء فقد كان واثقاً من أنّه لن يستطيع العيش لا تحت حكم دكتاتوريّة كاثوليكية فاشيّة، ولا في بلده الذي يحكمه فكر محافظ يقرب من الفكر الفاشي. لذلك فقد كانت كوبا خياره المريح، وهو يشكر لها أنّها كانت الأرض التي ألهمته العديد من كتبه ووفرت له الحكايات والشخصيات المناسبة لها. لا أكثر: أمّا البقية فما هي إلا اتفاق، مقايضة، صفقة، ويسوؤه الآن، الآن فقط، أن أطلق، وهو في حالة انتشاء، أكاذيب من مثل أنّه يشعر بأنّه كوبي أو أنّه كوبي.

– أتعرف أكثر ما أندم عليه؟

– ما هو؟

– أندم على أنّي عشت كلّ هذه السنين في كوبا ولم أغرم بكوبيّة.

– ليتك تعلم ما ضيّعتَ– قال كاليستو، بنبرة قاطعة، وابتسم–. أو ما نجوتَ منه.

– وأنتَ هل يعجبك أنّك كوبي، كاليستو؟

نظر إليه كاليستو وابتسم ثانية ثمّ قال جاداً:

– لا أفهمكَ اليوم، إرنستو.

– لا عليك. أنا اليوم لستُ في أحسن أحوالي.

– لا تقلق، ربّما هي حالة عابرة.

– هذا يقلقني– وعاد إلى إظهار شارة الأف بي آي. كان لا يزال يحملها في يده.

– ليس عليك أن تقلق. أنا هنا. وراؤول قال لي إنّه سيقوم بالجولة التفتيشيّة لاحقاً...

– نعم، أنت وراؤول هنا. ولكن قل لي: هل القتلُ سهلٌ أم صعب؟

بدا كاليستو منزعجاً. إنه يفضل ألا يتحدث عن ذلك الموضوع القديم.

– أنا وجدتُه سهلاً، سهلاً جداً. كنّا شربنا كالمجانين، وقد تجاوز الرجل الحدّ وأخرج سكيناً فأطلقتُ النار عليه. بهذه السهولة.

– هناك من يقول إنّه صعب.

– وأنتَ ماذا ترى؟ كيف رأيتَه مع من قتلتهم؟

– ومن قال لكَ إنّي قتلتُ أحداً؟

– لا أدري، الناس، أو أنتَ...لقد شاركتَ في العديد من الحروب. والناس في الحروب تتقاتل.

– صحيح– وداعب التامبسون–، لكنّي لم أقتل. قتلتُ الكثير، لكنّي لم أقتل شخصاً. وإن كنتُ أظنّ أنّي قادرٌ على فعل ذلك...فإذا جاء أحد ليكدّر عليّ حياتي، هل ستكون قادراً على...

– لا تكلمني عن ذلك، إرنستو.

– لماذا؟

– لأنّك لا تستحق أن يكدّر أحدٌ عليك حياتك...ولأنّك صديقي وسأدافع عنكَ، أليس كذلك؟ لكن ليس من اللطيف أن يموت الواحد في السجن.

– أكيد. انسَ ما قلناه.

– حين خرجتُ من السجن أقسمتُ بأغلظ الأيمان ألا أفعل شيئين: ألا أشرب وألا أعود برجليّ إلى الزنزانة.

– وهل صحيح أنك لم تعد إلى الشرب؟

– إطلاقاً.

– لكنّك كنتَ أحسن حالاً. حين كنت تشرب الرون كنت تروي حكايات رائعة.

– الحكواتي هو أنتَ، ولستُ أنا.

نظر إليه وتعجب ثانية من شدة سواد شعر كاليستو.

– هذه هي المشكلة: يجب أن أحكي وأقصّ، لكنّي ما عدت قادراً. كانت جعبتي ممتلئة بالحكايات، لكنّي أسير الآن بجعبة فارغة. أعيد مُعاداً وأكرر مكروراً، فلا جديدَ يخطر على بالي. أراني في ضيق، ضيق شديد. كنت أظنّ أن الشيخوخة شيء آخر. هل تشعر بأنّك عجوز؟

– أحياناً، نعم، عجوز جداً – اعترف كاليستو. وحينها أبدأ بسماع موسيقى مكسيكية وأتذكر أنّي طالما فكرتُ بالعودة إلى «بيراكروث» لأعيش هناك. ذلك يساعدني.

– ولماذا «بيراكروث»؟

– لأنّها كانت أوّل مكانٍ خارج كوبا زرته. هنا أسمع موسيقى مكسيكية، والمكسيكيون هناك يسمعون موسيقى كوبيّة، النساء هناك فاتنات والطعام لذيذ. لكنّي أعرف أنني لن أعود إلى «بيراكروث»، بل سأموت هنا، عجوزاً، من دون أن أتناول جرعة واحدة أخرى.

– لم يسبق لك أن كلمتني عن «بيراكروث».

– لأننا لم نتكلم قط عن الشيخوخة.

– صحيح– قال–. ولكن هناك دائماً متسع من الوقت للعودة إلى «بيراكروث»... طيب، من الأفضل أن أذهب إلى النوم.

– هل تنام جيداً؟

– أبداً. لكنّي أريد أن أكتب غداً. عليّ أن أكتب، وإن لم يسعفني ذهني. أنا ذاهب. الكتابة عندي هي مثل «بيراكروث» عندك.

ابتسم كاليستو وتصافحا. ثمّ استعان بالرشاشة لينهض. وقف على قدميه ونظر إلى داخل المزرعة. الهواء ساكنٌ والصمت مطبق.

– أعطني قطعة الحديد، إرنستو.

نهض كاليستو أيضاً، مستنداً إلى لوح من الخشب. التفت هو.

– لا – قال له.

– وإذا جاء رجال الشرطة؟

– سنتكلم معهم. لن يذهب أحد إلى السجن، وخصوصاً أنتَ.

– سأفتّش المزرعة.

- أظنّ أن لا حاجة لذلك. فمن ترك هذه انصرف.

- من باب الاحتياط - ألحّ كاليستو.

- حسناً... ولكن أعطني المسدس الذي أعطتك إياه زوجتي.

- ولكن...

- من دون لكن- قال منزعجاً تقريباً-. لن يذهب أحدٌ إلى السجن، وخصوصاً أنتَ. أعطني المسدس، قلتُ لك...

تردّد كاليستو لحظة ثمّ سلمه السلاح ممسكاً به من الماسورة.

- إرنستو...- احتجّ وهو يضع المسدس في حزام البرمودا.

- أراك غداً. هيّا، *بلاك دوغ*.

بدأ صعود الطلعة القصيرة المؤدية إلى البيت بخطوات رجل عجوز. كان *بلاك دوغ* يسير إلى جانبه، مقلداً طريقته في المشي. شاهده كاليستو وهو يبتعد، وعاد إلى البوابة. فتح الراديو، لكنّ باله لم يكن رائقاً ليستمتع ببوليرات أغوسطين لارا ولا برانشيرات ألفريدو خيمينث. أطفأ الجهاز وتطلّع إلى ليل المزرعة الهادئ البهيم. أحسّ بغياب الـ 45 في خصره.

***

- نعم، كنتُ أنا، وطبعاً أتذكّر. تلك كانت المرة الأخيرة التي رأيتُ فيها بابا.

كان الصباح ما يزال نديّاً منعشاً، وإن لم تهبّ فيه نسمة هواء. أخبره أحد الصبية بأنّ روبيرتو موجود في مرسى النهر، ثمّ وجده، بعد أن سأل صيادين هناك، جالساً على حجر، تحت شجرة من أشجار اللوز، وقد أسند ظهره إلى جذعها وحشر سيجارة كبيرة في فمه وسمّر نظرته في الغابة الصغيرة التي تنهض عند الضفة المقابلة من النهر. إن كان يصغر توريبيو ألتوثاو بخمس عشرة سنة، فهو الآن يناهز التسعين. مع ذلك، يبدو عمره أقلّ من ذلك بكثير، أو، لنقل، أقلّ شيخوخة. لقد بدا له شيخاً قوياً تجاوز الثمانين بسنوات، يلبس قبعة من قش، تبدو غالية ومصنوعة في مكان بعيد.

حيّاه كونده وقال له إنّه يريد الكلام معه.

– حضرتك تريد أن تجري مقابلة معي؟ – سأل العجوز، ممتعضاً، من دون أن ينزع السيجارة من فمه.

– لا. دردشة قصيرة فحسب.

– أكيد؟– أضاف إلى امتعاضه شكاً.

– أكيد. انظر، جئتُ من دون سلاح... لا أريد سوى أن أتأكّد من أنّ شيئاً، أحسبُ أنّه حدث لي منذ سنوات كثيرة، قد وقع فعلاً أم إنّه مجرد تهيؤات. وحكى له عن ذكرى اليوم الذي رأى فيه همنغوي ينزل من *البيلار* في شرم «كوخيمار»، ويلوّح بيده مودعاً رجلاً يبدو له أنّه روبيرتو نفسه.

– وصل إلى بيتي منتصف النهار من دون تبليغ، ومنذ أن رأيته بدا لي رجلاً غريباً، لكنّي كنتُ أعرفه جيداً، لذلك لم أسأله. تبادلنا التحيّة وطلب منّي أن أهيئ نفسي للخروج إلى البحر.

– هل أحمل معي الحبال والطعوم؟– سألته.

– لا، روبيرت، مجرد جولة.

هو دائما يدعوني روبيرت وأنا أناديه بابا.

رفع الرجل العجوز ذراعه وأشّر:

– هناك كان *البيلار* راسياً.

استدل كونده على اتجاه اليد فرأى البحر والنهر وعدداً قليلاً من قوارب الصيد التي عاثت بها يد الزمن.

– متى كان ذلك، روبيرتو؟

– الرابع والعشرين من تمّوزمن عام 60. أتذكر اليوم جيداً لأنّه في اليوم التالي صعد إلى الطائرة ولم يعد بعدها.

– وهل كان يعلم أنّه لن يعود؟

– أظنّ ذلك. مما قال لي.

– أنا يائس مرهق، يا رجل، وأظنّ أنّه لا علاج لحالتي– قال همنغوي–. وأنا خائف ممّا سيأتي.

– ماذا جرى، بابا؟

– أنا ذاهب إلى إسبانيا، وإن منعني الأطباء من السفر. عليّ أن أحضر

عدداً من نزالات مصارعة الثيران لأنتهي من كتابي. بعد ذلك سيدخلونني المستشفى. وبعد ذلك لا أدري ماذا سيحدث...

– لكنّ الدخول إلى المستشفى لا يعني النهاية.

– أمّا أنا، روبيرت، فأرى أنّ المستشفى تعني النهاية.

– وهل تشعر بأنّك لست على ما يرام؟

– لا تحرق لي أعصابي، روبيرت، هل أنتَ أعمى؟ ألا ترى كيف أزداد هزالاً، وكيف شختُ في سنوات قليلة؟

– وأنا عجوزٌ مثلك.

– لكنّي شختُ أكثر منك – وابتسم، وإن كانت ابتسامة حزينة.

– ليس عليك أن تحفل كثيراً بما يقول الأطباء. فزّير غاليثي، وكلّ الغاليثيين حمير. ولذلك فكلهم تقريباً صيادون– ضحكنا كلانا، هذه المرة بحق–. وهل ستعود؟

– بالطبع. ولكن إذا شفيتُ فسأبلّغ بأنّ هذا المركب لك. سيمنحك أحدٌ ما ملكيّته. الشرط الوحيد هو ألا تبيعه ما دام لديك بيزو تأكل منه. أمّا إذا ساءت حالك وتدهورت أمورك فلك أن تبيعه.

– لا أريد شيئاً، بابا.

– لكنّي أريد. أريد ألا يركب هذا المركب غيرك.

– إذا كان الأمر هكذا، فأنا موافق.

– شكراً، روبيرت.

– هل كان يكلّمك دائماً عن شؤونه؟– سأل كونده.

– أحياناً.

– هل قال لك مرّة أنّ لديه مشاكل مع مكتب التحقيقات الفدرالي؟

– لا، على قدر ما أذكر. أو، نعم... اغتاظ منهم حين منعونا من البحث عن الغواصات الألمانية عام 42. كانت تعليمات جاءت من فوق. أما بعد ذلك، فلا.[15][44].

– وماذا حدث أيضاً ذلك اليوم؟

– أبحرنا صعوداً وأطفأنا المحرك في عرض البحر، حيث كان يعجبه

الصيد، وجلس بابا في مؤخرة المركب وراح يتأمّل البحر. حينها قال لي إنّه قلق وخائف. وقد خفت قليلاً، لأنّ بابا لم يكن رجلاً خوّافاً. لم يكن خوّافاً حقاً. بعد ساعة تقريباً طلب منّي أن نعود إلى «كوخيمار» ولاحظتُ أنّ عينيه كانتا حمراوين. هناك شعرتُ بالخوف حقاً. لم أتصوّر يوماً أنّ رجلاً مثله يمكن أن يبكي.

– لا تقلق. تذكرتُ أيّامنا الهانئة هنا، نصطاد السمك ونشرب، فتأثرتُ. منذ ثلاثين عاماً اكتشف لي جو روسيل هذا المكان.

حين وصلنا إلى «كوخيمار» حدث ما رأيتَه: أبحرنا، نزل هو، وتعانقنا– تذكّر روبيرتو.

– انتبه إلى نفسك جيداً، روبيرت.

– لا تتأخّر، بابا. البحر مليء بالسمك...

– هل استغربتَ حضرتك أنه انتحر؟– سأل كونده، وهو ينظر إلى عيني الصيّاد العجوز.

– ليس كثيراً. فهو لم يعد هو، وما عادت تعجبه الحال التي صار عليها.

ابتسم كونده لاستنتاج روبيرتو، فقد بدا له أكثر الاستنتاجات ذكاءً ودقّة من بين تلك التي سمع بها أو قرأها حول موت الكاتب. وأدرك أنّه حتّى لو توصّل في كلّ يوم إلى معرفة القليل عن همنغوي وعمّا كان يعتمل في صدره وفكره، فإنّ الطرق المحتملة نحو الحقيقة المنشودة ستظلّ مغلقة. كان الشعور بالعرفان لدى روبيرتو لا ينثني، ومثله شعور توريبيو ألتوثاو، الذي كان يحسن إخفاء حبه الكبير لسيده وراء قوله عنه إنّه ابن قحبة كبير: فابن القحبة هذا كان يدفع له كثيراً، وابن القحبة هذا علّمه القراءة وترك له ثروته من ديوك المصارعة. فهل كانت كلّ الأفضال التي يدين له بها ذانك الرجلان من هذا النوع؟

– ما أجمل هذه القبعة– قال كونده.

– بعثتْ لي بها مس ماري مع أمريكان جاءوا لمقابلتي. إنّها قبعة بنميّة أصليّة، انظر.

وأراه الماركة المخبأة في داخل القبعة.

– قيل لي إنّ حضرتك تتقاضى مالاً عن المقابلات...

– صار القادمون لإزعاجي بالمقابلات من الكثرة أنّني قررتُ أن آخذ منهم مقابلاً.

– تجارة ممتازة. أفضل من الصيد.

– وسهلة: أحيانا أكذب عليهم، لأنّ الأمريكان يصدّقون أيّ شيء.

– كذبتَ على همنغوي أيضاً؟

– لا، على بابا، لا. لم أكذب عليه قط.

– هل كان طيباً؟

– بالنسبة إليّ كان كالإله...

– لكنّ توريبيو يقول إنّه كان ابن قحبة.

– وهل قال لك إنّه كان يسرق البيض الذي تضعه دجاجات بابا ويبيعها إلى آخرين؟ حين اكتشف راؤول فعلته وأخبر بابا بذلك، تعاركا، وقرر بابا طرده من المزرعة. ثم عاد توريبيو وأقسم له أنّه لن يسرق ثانية فعفا عنه.

ابتسم كونده: إنّه يتحرّك بين نمور مدربة، لكنّها نمور في نهاية الأمر. كلّ واحد يرتّب عالمه بأنسب طريقة يراها ويتستّر على عيوبه. وها هو أمر توريبيو، على الأقلّ، يظهر للعيان. فهل هناك أكثر؟

– صحيح أنّ راؤول كان مستعداً لفعل أيّ شيء من أجل همنغوي؟

– صحيح، أيّ شيء.

– أتمنّى لو أستطيع الكلام مع راؤول...وهل طرد همنغوي مرّة عاملاً من عمّال المزرعة؟

– نعم. طرد مزارعاً كان يصرّ على قطع شجيراته، وطرد آخر... لم يكن يطيق أن يقطعوا أشجاره. ولكن، ما الذي تريد حضرتك أن تصل إليه من كلّ هذه الأسئلة؟

– شيء لن تصرّح لي حضرتك به أبداً.

– إذا كان مرادك أن أتكلّم بسوء عن بابا فأنت واهم. اسمع، حين عملتُ معه، كنتُ أعيش أفضل من الصيادين الآخرين، وبعد أن توفي، ما زلت،

وبفضله، أعيش عيشة جيدة، وها أنتَ ترى أنّ لديّ قبعة بنميّة. واعلم أنّ آخر ما يمكن للمرء أن يكونه هو أن يكون ناكراً للجميل.

– أعلم ذلك. ولكن وقع شيء خطير لهمنغوي...ففي مزرعته ظهرت جثّة. عظام رجل قتل قبل أربعين عاماً. أطلقت عليه رصاصتان. والشرطة تعتقد أنّه هو القاتل. والأخطر من ذلك أنّ شارة قديمة للأف بي آي ظهرت بالقرب من القتيل. فإذا ثبت أنّ القاتل هو همنغوي، فسيغوص في الخراء، من رأسه إلى قدميه.

لزم روبيرتو الصمت. كان، بلا شكّ، يقلّب في رأسه الكلام الخطير الذي سمعه من مخاطبه الغريب. لكنّ تلكؤه نبّه كونده إلى احتمال أن يكون روبيرتو مطلعاً على تلك المعلومة.

– من أنت؟ وما الذي تبتغيه؟

– أنا، كما يقال، مغفّل بليد في ثياب مدنيّة. وكنتُ من قبلُ شرطيّاً، لكنّي لم أكن أقلّ بلادة. والآن أحاول أن أكون كاتباً، لكنّي ما زلتُ ذاك البليد المغفّل، وأعيش من بيع الكتب القديمة. كان من تصفه بأنّه بابا مهماً جداً بالنسبة إليّ، حين بدأت الكتابة، قبل سنوات. لكنّه فقد لونه في نظري. بدأتُ أسمع بأشياء فعلها مع أناس آخرين، وبدأت أفهم الشخصيّة التي صنعها لنفسه، فما عدت معجباً به. ولكن إن تمكّنتُ تجنيبه تهمة هو بريء منها، فلن أتوانى عن فعل ذلك. فأنا لا أحبّ أن تشوّه سمعة أحد لمجرد الرغبة في تشويه سمعته، وأظنّ أنّك أيضاً لا تحبّ ذلك. حضرتك رجل ذكي وتعلم أنّ الميت شيء بالغ الثقل.

– صحيح – قال روبيرتو، وأخرج السيجارة للمرة الأولى من فمه. بصق بصقة كبيرة، دبقة وبنيّة، تكوّرت وتدحرجت على الأرض اليابسة.

– من بقي على قيد الحياة من ناس المزرعة الموثوقين؟

– أنا وتوريبيو، على حدّ علمي. هاااا، والغاليثي فرّير، صديقه الطبيب، لكنّ هذا يسكن في إسبانيا. عاد إلى إسبانيا حين مات فرانكو.

– وكاليستو، الحارس؟

– لا بدّ أنّه مات. كان أكبر منّي سنّاً... لكنّي لم أسمع شيئاً عنه منذ أن ترك المزرعة.

أشعل كونده سيجارة ونظر إلى البحر. مع أنّه كان يستظلّ بشجرة اللوز فقد كان يشعر بحرّ يوم ينذر بأنّه سيكون قائظاً.

– هل انصرف كاليستو من نفسه أم ترك المزرعة مطروداً؟

– لا، انصرف من نفسه.

– ولماذا انصرف؟

– لست مطلعاً على هذه القصّة.

– لكنّك مطّلعٌ على سيرة كاليستو، تمام؟

– مطلع على ما يحكيه الناس. يقال إنّه قتل رجلاً.

– وهل كان همنغوي يثق به؟

– أظنّ ذلك. كانا صديقين قبل تورط كاليستو بالقتل.

– ألا يعرف أحد أين ذهب كاليستو بعد أن غادر المزرعة؟ أكيد أنّه كان يكسب راتباً جيداً؟

– سمعتُ أنّه رحل إلى المكسيك. كانت تعجبه شغلات المكسيك.

تمثّل كونده بحذر تلك المعلومة. فإن كان صحيحاً أنّ كاليستو ذهب إلى المكسيك، فهذا قد ينطوي على أشياء كثيرة.

– كلّ هذا البعد؟ ألا يحتمل أنّه هرب من شيء؟

– لا أعرف...

– لكنّك تعرف بالتأكيد متى غادر؟

أطرق روبيرتو لثوان مفكراً. وخمّن كونده، لمجرد التطلع إلى العجوز، أنّه يعرف التاريخ، لكنّه كان مشغولاً بحسابات أكثر تعقيداً، ربّما أكثر خطورة. وأخيراً تكلّم.

– إن لم تخنّي الذاكرة، فقد انصرف بداية أكتوبر من عام 58. أعرف ذلك لأنّ بابا سافر بعد ذلك بأيّام إلى الولايات المتحدة للاجتماع بمس ماري، التي كانت هناك آنذاك...

– وماذا تذكر عن تلك الحكاية أكثر؟

– لا شيء. وماذا عساي أتذكّر؟ – قال محتجّاً. وشعر كونده به وقد بات في وضع الدفاع.

- روبيرتو- قال كونده وتوقف. دخّن ووزن كلماته لحظة-. أليس لديك ما تقوله لتساعدني في الكشف عن هوية قتيل مزرعة «بيخيّا» ومعرفة هويّة قاتله؟

نظر العجوز إلى عينيه، والسيجارة من جديد في فمه، وقال له:

- لا.

- خسارة - قال، وهو ينهض ويحسّ بصدأ السنوات يؤلم ركبتيه-. حسناً، لا تخبرني بشيء. لكنّي أعرف أنّكَ تعرف أشياء كثيرة. صحيح أنّك تراني بليداً، لكنّي أعرف أنّ حضرتكَ تتستر على أشياء كثيرة، ولا أدري لماذا أشعر بأنّ أحداً ما حكى لكَ موضوع القتيل الذي ظهر في المزرعة، لكنّه نصحك بألا تكثر في الكلام... اسمع، روبيرتو، أنا معجبٌ بقبعتك حقّاً.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

-5-

كان كونده محيطاً بما يحدث وكيف يحدث: التحامل أشواكٌ بين يديه، والوقائع تشنّجٌ في معدته، يوخزها ويقلقها. لكنّ التحامل والوقائع تنمو وتتحول إلى هواجس مؤلمة، كما البذرة حين تسقط في أرض خصبة. صارت لدى كونده قناعة بأنّ بين الكاتب إرنست همنغوي وصاحبه القديم كاليستو مونتنيغرو، مهرّب الكحول السابق والقاتل والعامل في مزرعة «بيخيّا» بين 1946 وأكتوبر 1958، علاقة خفيّة، تتجاوز رابطة التبعية والولاء التي أقامها الكاتب مع بقيّة عمّاله. بينما كان كونده في طريقه نحو مركز «كوخيمار» وليس في باله غير كأس من الرون، مع كأس من الرون، نمت فيه تلك القناعة وفاجأه الألم: كان جُرحاً حارقاً وشرساً، ومع أنّه لا يشعر به منذ ثماني سنوات، فقد استمتع به أيّما استمتاع، لأنّه جرحٌ كامنٌ في صدره، كخنجر مسنون مُعدّ للإجهاز على الثور، ولأنّه واحدٌ من ألذّ ما عاناه من هواجس، وما ذاك إلّا لأنّه جرحٌ ذو أصل أدبيّ خالص.

وبجرعتين طويلتين، عبّ كأس الرون المضاعفة. وقبل أن يبحث عن سيارة متجهة إلى هافانا، تحققت معجزة العثور على تلفون عمومي في كشك للجرائد. وتحققت معجزة أكبر حين أمّن الاتصال من أوّل محاولة، وحين أوصلته عاملة البدّالة بالملازم پلاثيوس.

– ماذا جرى، كونده؟ كنتُ على وشك الخروج.

– من حسن حظي أنّي وجدتك. أحتاج أن تعمل اتصالاً هاتفياً قبل أن تنصرف.

– ما الموضوع؟

- عندي فكرة، مانولو.

- إلى الجحيم مع أفكارك!- قال الآخر، العارف بتشعبات الموضوع.

- وأظنّ أنّها من أفضل ما خطر على بالي من أفكار... اسمع، اتصل بالمكتبة الوطنية واطلب منهم أن يسمحوا لي بالاطلاع على كلّ الكتب التي أطلبها وبسرعة. أنت تعرف كم يتأخر هؤلاء الحقراء، وكم هم متحفظون مع بعض الكتب...

- وعمّ تبحث؟ إذا كان ممكناً، بالطبع...

- أبحث عن تاريخ. سأحكي لك لاحقاً.

- أنا أيضا لديّ ما أريد أن أحكيه لك. لديّ الآن اجتماع. في حدود الساعة الثانية سأكون في مزرعة «بيخيّا». هناك سنلتقي. تمام؟

- لكنّي لا أعمل بمحرّك!

- اسمع، ولكي تتأكّد من مدى حبّي لك، عند الواحدة والنصف ستجد سيارة مع سائقها بانتظارك عند باب المكتبة الوطنية- قال الملازم-. هناك أمور استجدّت. سنلتقي في المزرعة. هاا، اسمع، وأحذرك أن تسرق شيئاً من المكتبة- ووضع السماعة.

كان الهدوء يخيّم على المكتبة، فالوقت صيف، والطلبة في إجازة. هدوءٌ يخفف من قلق كونده. ثمّ إنّ انغماسه بين الكتب، عازماً على البحث عمّا لم يبحث عنه أحدٌ، ربّما، حول حياة همنغوي وأعماله، كان يمنحه إحساساً لطيفاً لا يعرفه إلا المهووسون بالكتب. في مثل تلك الحالات، كان كونده يستمتع بفكرة أنّ الكتب تستطيع أن تتكلّم، بأنّها حيّة ومستقلة. حينها أدرك أنّ حبه للكتب، التي بفضلها يعيش، والتي نال منها طوال سنوات سعادة تختلف عن كلّ صور السعادة الممكنة، كان أحد أهمّ الأشياء في حياته، حياته التي راحت الأشياء الجميلة تقلّ فيها وتتضاءل - وبدأ يعدّها على أصابعه: الصداقة والقهوة والسيجارة والرون وممارسة الحب من حين إلى آخر- آي، تمارا، آي، آفا غاردنر- والأدب. والكتب، بالطبع، أضاف أخيراً.

تأكّد له، وهو عند منضدة استعارة الكتب، أنّ أمر پلاثيوس بتلبية طلباته، وبأقصى سرعة، قد وصل إلى مسؤولي المكتبة. ها هو يرى أنّ شيئاً ما يعمل

في الجزيرة، لكنّه شيء واحد فقط: واكتشف مبهوراً وجود بطاقات تشير إلى جميع روايات همنغوي وكتبه الصحفيّة تقريباً، ولكن ما من بطاقة بينها تخصّ حياته وسيرته. مع ذلك فقد سجّل جميع الكتب الثانوية المذكورة بالإسبانية والإنكليزية وطلب أن يأتوا له بها كلّها. على الرغم من أنّ طلبه واحد وما يبحث عنه معلومة واحدة، تاريخ واحد: أكتوبر من عام 1958.

أشعل كونده سيجارة وسحب نفساً ملأ رئتيه، ثمّ ألقى بنفسه كما يلقي الغواص بنفسه إلى البحر. فأمامه ثلاثة كتب عن حياة همنغوي وأربع دراسات نقديّة. بدأ بالتراجم، وبحث في الفصول الأخيرة منها. قفزت إحداها من جائزة نوبل إلى نشر *الصيف الخطير* في مجلة لايف، عام 1960، من دون أن تتوقف فيما فعله الكاتب في كوبا خلال عام 1958. كانت السيرة الأخرى تضمّ الكثير من الصور، لكنّها لم تذكر شيئاً عن إقامته في هافانا في ذلك العام. مع ذلك، توقف كونده دقائق عند الصور المنشورة، وكان كثير منها مجهولاً بالنسبة إليه، لأنّها كانت تظهر همنغوي بين أهله وأسرته، بعيداً عن مسارح الحياة الكبرى: صور قديمة يظهر فيها مع شقيقاته أو مع أمّه، التي كانت تصرّ على أن تلبسه ملابس بنت؛ صور من حياته اليوميّة في مزرعة «بيخيّا»، أثناء الغداء أو لقاءاته بأولاده، إيماءات حب نحو ماري ويلش، قطط البيت أو صورة كلب يدعى *بلاك دوغ*، ينظر إلى الكاميرا بعينين تشعّان ذكاء؛ ذكريات من أزمنة سعادته مع هادلي ومع پاولين، زوجتيه الأوليين، ووالدتي أولاده الثلاثة؛ صور الأب التقليدي، الملتحي والشايب، المتعب في الظاهر، الشبيه ببابا نويل وسخ رآه كونده ذات يوم يمرّ بالقرب منه، في شرم «كوخيمار»، وصور لبعض خلصائه، وبينهم توريبيو ألتوثاو وروپيرتو والمرحوم راؤول بيّارّوي، مبتسماً يقف بين الكاتب والبنت ذات الاثني عشر ربيعاً، والضفائر الطويلة، ابنة راؤول وابنة البابا بالمعموديّة، بحسب ما كتب أسفل الصورة. في تلك الصور يظهر همنغوي أكثر إنسانيّة، أقرب إلى الإنسان في عيني ماريو كونده. لكنّ السيرة الثالثة هي التي وضعت الملح على الجرح: فاستناداً إلى مؤلفها، فإنّ همنغوي توقّف، بداية أكتوبر 1958، عن العمل في جنّة عدن، تلك القصّة القديمة والمحبِطة التي بدأها في الأربعينيات ثمّ صار يفكّر

في تحويلها إلى رواية. في يوم 4 صعد إلى الطائرة متجهاً إلى الولايات المتحدة، للقاء زوجته وترتيب أمر شراء أراضي «كيتشوم»، حيث سيشيّد بيته الأخير. بدأت أجراس الهواجس تقرع.

اثنتان من الدراسات النقديّة، المنشورة قبل 1986، وهي سنة نشر جنّة عدن، اكتفتا بالإشارة إلى وجود تلك المخطوطة التي كانت ما زالت مجهولة. أمّا الدراسة الثالثة فقد تكلمت عن الكتاب، لكنّها اكتفت بالقول إنّه بدأ العمل به في باريس عام 1946 وواصله في هافانا عام 1958، حين أجّل الكاتب مراجعة *موت في الظهيرة* بانتظار حضور موسم جديد من مواسم مصارعة الثيران في إسبانيا. استناداً إلى كاتب الدراسة فقد مرّت تلك الأيام صعبة على همنغوي، فقد بدأت عللُه تضايقه، وتحوّلت الكتابة لديه إلى ممارسة صعبة، مؤلمة تقريباً. أمّا ما جعل فرائص كونده ترتعد فهي الدراسة الأخرى: لقد اكتشف الناقد، وهو يراجع المخطوطات التي أخرجتها ماري همنغوي من كوبا، أنّ الصفحة الأخيرة من تلك الرواية، التي تركها الكاتب من دون نشر، كانت مؤرخة في هافانا وتحمل تاريخ 2 أكتوبر من عام 1958، وعليها تعليق لم يعد مقروءاً تقريباً، كتبه المؤلف بخط يده. عادت الأجراس تقرع.

حين ثاب كونده إلى نفسه ونظر إلى الساعة وجد أنّها الثانية وخمس دقائق من بعد الظهر. حمل الكتب إلى منضدة الاستعارة بسرعة وشكر أمينة المكتبة وركض نحو باب الخروج. هناك رأى شاباً يرتدي ثياباً مدنية ينظف زجاج سيارة تلمع تحت شمس منتصف النهار المشعّة، بينما كان هوائي الراديو يؤشر إلى السماء.

– أنا ماريو كونده– قال له.

– كنتُ على وشك الانصراف– قال الشاب.

– هيّا بنا.

سيعلم كونده لاحقاً أنّ الشرطي الشاب، ذا الملابس المدنية، هو سائق الملازم مانويل بلاثيوس الخاص، وأنّ مانولو هذا لم يختره إلّا لأنّه نسخة منه في قيادة السيارات، بل لا بدّ أنّ مختبراً خاصاً عمل منه نسخة خاصة

لتلك المهمة: لم يكن ذلك المجنون قادراً على تلميع السيارة تحت شمس منتصف النهار الكافرة فحسب، بل كان في مقدوره أيضاً أن يقطع المسافة بين المكتبة الوطنيّة ومزرعة «بيخيّا» في عشرين دقيقة. عشرون دقيقة مرّت كلّ واحدة منها ساعاتِ احتضار وأيّاماً مضاعة من العمر.

– ما الداعي إلى العجلة؟ – سأله حين فتح السائق فجأة طريقه بزمّور وصراخ في دوّار «فوينته لومينوسا».

– لا أدري، ربّما...– قال وضغط بقدمه كلّها على دواسة البنزين.

شعر كونده، حين ترجل من السيارة في كراج المزرعة، بساقيه ترتعشان وبجفاف يكوي حلقه. استند لثوان إلى السيارة، بانتظار أن ترتخي عضلاته وأن يسترد قلبُه إيقاعه. حينئذ رمق السائق بنظرة فيها كراهية، الكثير من الكراهية.

– اللعنة على أمّك– قال له، بصوت خرج من كلّ قلبه. وتقدّم نحو مكاتب المتحف.

***

سلك طريق السيارات المعبّد للعودة إلى بيته. صحيح أنّه أطول من طريق شجيرات الكزوارينة بثلاث مرّات، لكنّ الصعود فيه أقلّ مشقة. ثمّ إنّه ليس في عجلة من أمره. فبين النبيذ وشارة الشرطي فارق النوم عينيه، بل إنّه يتوقّع أنّه لن يحظى إلا بنوم قليل ورديء، كما اعتاد أن ينام مؤخراً. كان *بلاك دوغ* يسير إلى جانبه، يقلد خطواته وأفعاله، فلا نباح ولا ابتعاد عن السراط.

تذكّر، وهو يصعد الطلعة الأخيرة، ملتفّاً حول الكراجات والشاليه المخصص للضيوف، أنّه ترك باب الصالة الجانبية مفتوحاً. أم إنّه أغلقه؟

صعد الدرجات الست المحيطة بالبيت، ثم الست الأخرى، التي كانت تصل إلى الباب الرئيس. حشر المفتاح وألقى بنظرة من العتبة على الداخل. كانت القناديل ما تزال مضاءة؛ الساعة والزجاجة والكأس فوق سجادة النسيج الفلبيني؛ لوحة ميرو معلقة على حائط غرفة الطعام، ولوحة خوان غريس في مكانها من الصالة؛ الوحدة هي الحضور الوحيد المنظور، يتحرك حُرّاً بين ذكريات ليالي الشراب والدردشة التي أمضاها بين جدران

تلك الغرفة، أيام بدأت، في كثير من الأحيان، بإطلاق نار ودويّ ماسورتي البرونز الصغيرتين، تحيّة لضيوف مهمّين. يشمشم *بلاك دوغ* عند عتبة الباب ويتقرّب، لكنّه، حين حاول الدخول، قال له:

– مكانكَ، *بلاك دوغ*... كفاك هذا اليوم– توقف الحيوان ورفع بصره نحو سيده–. لديك سجادتك هناك. اعتنِ بالبيت، فأنت كلبٌ عظيم– داعبَ رأسه وجرّه بلطف من أذنيه.

أغلق الباب الرئيس ثمّ أغلق ذاك المؤدّي إلى الشرفة التي تظللها العريشة. إنّه لا يفهم كيف فاته أن يغلق الباب حين خرج مسرعاً. لام نفسه واقترب من البار الخشبي الصغير وصبّ لنفسه مقدار إصبعين من الجنّ، ثمّ عبّه عبّاً فكأنّه يتجرّع مشروباً كريه الطعم لتهدئة أعصابه. أطفأ جميع المصابيح إلا ذاك القريب من غرفته. مع غياب مس ماري صار يفضّل أن ينام في مكتبه ليبعد عن ذهنه الإحساس بالهجر الذي يحدثه سريرٌ واسعٌ نصف شاغر. حين دخل في غرفة مكتبه ترك التامبسون بالقرب من عصا خشب الغويرا القديمة، وأسندها إلى رف المدخل حيث صفّ مختلف طبعات كتبه. ولما كان قد قرّر أن يعيد البندقية الرشاشة إلى البرج، فقد أراد أن تكون تحت بصره فلا يعود إلى نسيانها.

كانت الصحف والمجلات والرسائل تغطّي أكثر من نصف فراشه. جرّ الشرشف من طرفه وفرشه بين السرير والنافذة المطلّة على المسبح. دخل إلى الحمّام كمن يتّجه إلى منصّة الإعدام. تبوّل رغوة ثقيلة عكرة، وتعرّى بعد أن ترك قميصه وبنطلونه القصير يسقطان بين المغسلة والمرحاض، وبعد أن وضع مسدسه فوق حافة حوض الغسيل. تناول بيجامته المخططة من كلابة التعليق، لكنّه لم يلبس غير بنطلونها. ما كان الحرّ يسمح بارتداء القميص. صعد، كعادته كلّ ليلة، على الميزان وسجّل وزنه على أقرب حائط: 2 أكتوبر59: 220. هو وزنه نفسه على امتداد السنة. بدت عليه علامات الرضا.

عاد إلى مكتبه وبحث عن سروال آفا غاردنر الأسود ولفّ به المسدس ووضعه في نهاية الدرج الأوّل، بين عدد من أمشاط الرصاص وزوجين من مناديل المصارعة. لكنّه فكّر أنّ الدرج ليس مكاناً جيداً لحفظ المسدس،

فحمله وذهب به إلى خزانة الملابس حيث حشره في جيب أحد معاطفه. اتجه صوب السرير، لكنّه توقف لحظة قبالة آلته الكاتبة الرويال- آرو المحمولة المخلصة. إلى جنب الآلة، وضعت، تحت حجر من نحاس، الصفحات الأخيرة التي كتبها من تلك الرواية الملعونة التي تأبى أن تنتهي. وكتب بواحد من أقلام الرصاص المبريّة تاريخ آخر ورقة راجعها: 2 أكتوبر 58.

نظر إلى السرير، لكنّه لم يستلقِ عليه. لقد اختفى منه ذلك الإحساس اللطيف بالوحدة وسرى في أوصاله ألمٌ قارس البرودة. هو لم يرَ نفسه، طيلة حياته، إلا محفوفاً بأفراد حوّلهم بطريقة أو بأخرى إلى معجبين به. كانت التجمّعات هي محيطه الطبيعي الذي لم يتخلّ عنه إلا في أربعة نشاطات تتطلب ممارستُها الوحدة، أو أن يكون، على أبعد تقدير، مع شخص ثان: صيد البرّ وصيد البحر وممارسة الحبّ والكتابة؛ على الرغم من أنّه استطاع، حين كان يعيش في باريس، أن يكتب أفضل رواياته في المقاهي، محاطاً بالناس، وعلى الرغم من أنّ رحلة صيد في أعالي البحار تحوّلت غير مرّة إلى حفلة هادئة بين جزر الخليج. أمّا بقيّة أفعاله فربّما كانت، أو لا بدّ أنّها كانت، جزءاً من حالة الصخب التي باتت عليها حياته منذ أن اكتشف، وهو بعد صبيّ مراهق، ميله إلى أن يكون محور الاهتمام، ونزوعه إلى أن يصبح زعيم من يعيشون بقربه وفي معيته: يأمرهم وينهاهم ويقودهم. صحب مجموعة من هواة المغامرة إلى احتفالات سان فيرمين پامپلونا، بصفة العرّاف الملهم، حيث استعرض أمام دوس پاسوس[19] شجاعته وشدّة بأسه حين وقف قُدّام ثور عظيم وتجرأ على الإمساك برأسه. وشارك مع عدد أنصاره والمعجبين به في القتال في صفوف الجمهوريين أثناء الحرب الأهليّة الإسبانية. وجال في جبهات القتال لتصوير فيلم *الأرض الإسبانية*. وشبع من شرب النبيذ والويسكي والجن في فندق «فلوريدا»، بينما القنابل تتساقط على مدريد. وأبحر مع شلة من أتباعه على مدى عام تقريباً بين مرافئ كوبا الشمالية، لا يحمل إلا قطعاً قليلة من السلاح، وإن حملوا معهم مؤونة كافية من الرون والثلج، لمطاردة مزعومة للغواصات الألمانيّة. وتقدم مع مجموعة من المقاتلين الفرنسيين الأشداء وقارورتين مليئتين بالويسكي والجن، نحو

خطوط النازيين عقب إنزال النورماندي. وقاد أولئك المحاربين المجربين الفرنسيين في عملية تحرير فندق «ريتز» البطوليّة، وهناك عبّ المزيد من النبيذ والمزيد من الويسكي والمزيد من الجن... لقد وصفته الخائنة مارثا غيلهورن، وهي المصممة على أن تروي خصوصياته ولحظاته الحميميّة، بأنّه عامل فاعل نشيط، لكنّه في الفراش بارد ومتكرر، وأنّ حاجته تلك إلى الرفقة تقوم دليلاً على مثليته المستترة. يا لها من عاهرة: هذه التي لا تتوانى عن أن تطلب أن يواقعوها من دبرها ويعضّوها من حلمتي ثدييها حتّى يجعلوها تصرخ من المتعة والألم.

جلس على السرير ونظر ثانية إلى ظلمة الليل. لقد اضطره الحرّ إلى أن يترك النافذة مفتوحة، ها هي التومسون في متناول يده، مع ذلك فهو لا يشعر بالأمان. لذلك نهض وذهب ليأتي بمسدسه. وضعه على طاولة سريره الذي اعتاد أن ينام فيه. شمّ قماش الدانتيل الأسود قبل أن يترك المسدس، لكنّ رائحة الزيت والبارود كانت قد طغت على عطره الأنثوي القديم. مع ذلك، تبقى تلك القطعة تذكاراً جميلاً لأزمنة جميلة.

ترك رأسه يسقط على الوسادة، ونظر مليّاً إلى بندقية «المانليشر» القديمة، الحبيبة على قلبه، وقد غطّاها للنصف رأس الجاموس الأفريقي الكبير الذي قتله في سهول «سيرينغيتي» أثناء رحلته الأولى إلى أفريقيا عام 1934. سرى في بدنه شعور بالراحة حين نظر ثانية إلى رأس ذلك الجاموس الكبير الذي بيّنت له مطاردته وقتله كم للخوف من قدرة على شلّ الحركة، وكم تعظم إمكانية نجاة المرء حين يستهين بزهق الأرواح ويستسهل القتل، وهو ما ألهمه رواية *حياة فرنسيس ماكومبر القصيرة السعيدة*. فالقتل، وأنتَ قاب قوسين من الموت، هو أحد الدروس التي لا يستطيع الرجل الاستغناء عنها، فكّر، وتأسف على أنّ العبارة، بالصياغة الدقيقة التي توصل إليها الآن، لم تظهر في أيّ من قصصه عن الصيد والموت والحرب.

مع تلك العبارة الحقيقية الرائعة في ذهنه، وصورة الجاموس الأفريقي ملء نظره، بدأ يقرأ بانتظار أن ينام. قبل يومين بدأ يقلّب رواية عبثيّة غريبة كتبها جي دي سالينجر، وهو رجل ليس في سيرته ما يميزها غير أنّه عاد نصف مجنون من حملة فرنسا، حيث خدم رقيباً في سلاح المشاة. تروي

القصّة حكاية شاب بذيء اللسان قليل الأدب، قرّر الهرب من بيته، ليبدأ باكتشاف العالم من من منظوره المضطرب المنحرف، وكأنّه شخصيّة من شخصيّات مارك توين، مع فارق أنّه في مدينة حديثة من مدن الشمال. كانت نهاية الحكاية أكثر من متوقعة، وكانت الحكاية خالية من الأحداث الخارقة والمآثر التي كان يدعو إلى وجودها في الأدب، مع ذلك فقد واصل القراءة بحثاً عن المفاتيح الغامضة التي جعلت ذلك الكتاب الغريب ينجح على مستوى المبيعات، وجعلت من مؤلّفه روائياً وبلعنا نحن الخازوق. بلعنا الخازوق، عاد ليهمهم، ولكن من دون حماس كبير.

لم يشعر باللحظة التي أغلق فيها عينيه، والكتاب على صدره والنظارات على وجهه، ليستغرق في نوم قلق مضطرب، لأنّ ضوءاً من الوعي ظلّ متوهجاً في ذهنه، مثل مصباح القراءة الذي لم يطفئه. أحسّ، وهو مذبذب في ذلك المكان، بين الغفوة والصحوة، أنّه يسمع نباح *بلاك دوغ* بعيداً ومكرراً، وحين فتح عينيه وجد أمامه، بدلاً من رأس الجاموس الأفريقي الكبير، صورة مشوشة لرجل يقف أمامه وينظر إليه.

***

إنّه يعرف ذلك الوجه: لقد رآه مرات كثيرة حتى اعتاد فيه سخرية المنتصر تلك التي كانت تبدو عليه، وهو يحرّك العين اليمنى، من دون توقف، نحو التجويف الأنفي.

– فلديك إذاً شيء جيد– قال كونده، بصوت رجل يستعد لتلقّي مفاجأة. وبدأ بالسير إلى جانب الملازم مانويل پلاثيوس.

– وكيف عرفتَ ذلك؟

– انظر إلى نفسك في المرآة– توقف تحت نخلات الكوثل التي كانت تؤلف مستديرة صغيرة قبالة البيت، ونظر إلى مانولو.

– أظنّ أنّ الميت جاهز للدفن– قال رجل الشرطة، وهو يحشر يده في جيبه–. انظر إلى هذه.

في راحة يد مانولو، رأى الرصاصة. كانت عليها ذرات من التراب في الحزوز، وكان لونها رمادياً غامقاً، بدا كئيباً لكونده.

- ما زالت الأرض تجود بالمزيد. لقد وجدناها هذا الصباح.
- رصاصة واحدة فقط؟ ألم يُقتل برصاصتين؟
- ربّما اخترقت الثانية بدنه، والله أعلم أين انتهى بها الأمر...
- نعم. ممكن. وهذه الرصاصة، هل تعرفون من أيّ سلاح انطلقت؟
- لسنا متأكدين، لكنّ العريف فليتيس يقول إنّها من رشاش تومسون. أنت تعلم أنّ الرجل خبير بالمتفجرات، لكنّه عوقب لكونه سكّيرا.
- وهل صاروا يعاقبون الخبراء السكيرين؟ أم إنّ السكيرين الآن هم الخبراء؟

ابتسم مانولو بالكاد.

- وهمنغوي لديه تومسون. يقول تينوريو إنّه استعملها مرات عديدة لقتل القروش حين كان يخرج للصيد. لكنّ هناك ما هو أهمّ وأخطر: راجعنا قوائم الموجودات ولم نعثر على الرشاشة بين الأسلحة التي بقيت في المزرعة، ولم تكن بين الأشياء التي حملتها أرملته بعد أن انتحر الرجل. بالمناسبة، لقد حملت السيدة جميع اللوحات الثمينة...
- وماذا كنتَ تتوقع؟ أن تهديها أيضاً؟ تركت البيت والمركب وكلّ الخراء الذي في الداخل.
- وهل أخذتِ التومسون أيضا؟
- يجب التحقق من ذلك، لكنّي رأيت تلك الرشاشة. لا، لم تبتلعها الأرض.
- اسمع، أمرٌ محتمل: قد تكون مدفونة.
- حين يريد أحدٌ أن يخفي قطعة سلاح فهو لا يدفنها، بل يلقي بها في البحر. أمّا إذا كان لديه مركب...
- عجباً، هذا هو كونده الذكي الذي أعرفه- قال مانولو، بسخرية واضحة-. ولكن ما عاد يهم مكان اختفاء التومسون، وأظنّ أنّ عليك الآن أن تحتفظ بهواجسك في جراب. اسمع ما سأقول: في أرشيف الشرطة الخاص وجدنا قضية تخص عميلاً للأف بي آي اختفى في كوبا في أكتوبر عام 1958. هذا العميل، ويدعى جون كيرك، أرسل للعمل في سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في هافانا، وكان يقوم هنا بعمل روتيني لا ينطوي على أيّة أهميّة.

هذا على الأقل ما قاله رؤساؤه حين ضاع أثر الرجل، ولا بدّ أنّ ما قالوه حقيقة، لأنّه كان يناهز الستين وكان أعرج. المشكلة أنّه لم يعرف عنه شيء بعد ذلك، فبعد انتصار الثورة لم يشغل أحد نفسه بالبحث عنه.

– وهل فقد جون كيرك الأعرج في الثاني من أكتوبر 58؟

كان كونده يجيد توجيه ذلك النوع من التلميحات ويستمتع بنتائجها الخبيثة: بدأت ثقة مرؤوسه القديم تنهار وراحت نظرته تزوغ: حدّق مانولو في كونده، بفم نصف مفتوح، بينما راحت عينه اليمنى تبحر بلا وجهة.

– ولكن، أيّ شيطان أنتَ...!

– هذا هو ما ستجده حين تحاول أن تتذاكى معي – ابتسم كونده، راضياً–، انظر، مانولو، أحتاج إلى مساعدتك، لأنّي متأكّد من أهميّة ما سأحكي لك. اتصلْ بمدير المتحف، أحتاج أن أفتش البيت ثانية. لكن قل له إنّ لي شرطاً: ألا يتكلم إلا إذا سألناه، أوكي؟

تابعه مانولو بنظره مندهشاً معجباً، بينما كان كونده يصعد الدرج الذي يقود إلى المدخل، ويبدأ، وظهره إلى البيت، بالتطلّع إلى حدائق المزرعة، وخصوصاً إلى المكان الذي ظهرت فيه جثة ورصاصة وشارة وقصّة تكتسب شيئاً فشيئاً سخونة وخطورة.

عاد الملازم يرافقه مدير المتحف، وقد بدا أنّ مطلب كونده بأن يلتزم الصمت قد بلغه. لم يَبدُ خوان تينوريو مرتاحاً لوضعه، ونظر إلى مسؤول العملية المفترض الذي لم يكن، حسب معلوماته، مسؤولاً عن شيء.

– أين كانت حظيرة الديكة بالضبط؟ – سأله كونده، فقال له المدير:

– حسناً. هناك، حيث ظهر الميت.

– ولماذا لم يقولوا ذلك؟

– حسناً– كرر تينوريو، وقد جُرّد أيضاً من ثقته–، لم أتخيّل أنّ...

– يجب أن تكون لنا قدرة أكبر من التخيّل، زميلي– ألقى كونده عليه تلك الموعظة بنبرة تربويّة، مضيفاً إليها تقنيّة همنغوي في تسفيه زملائه، قبل أن يغفر لهم ما قالوا أو ما فعلوا– حسناً، ما عاد ذلك مهماً. هيا بنا إلى داخل البيت.

تقدمهم المدير، لكنّه توقف حين سمع كونده يقول:

– بالمناسبة، تينوريو، بما أننا نتكلم عن الخيال...ما هو لقبك الثاني؟[46]

التفت الخلاسي ببطء، وقد فاجأه سؤال كونده.

– بيّارّوي...– قال

– حفيد راؤول بيّارّوي، رجل همنغوي الموثوق. أيضا لم تخبرنا بذلك...، لماذا، تينوريو؟

– لأنّ أحداً لم يسألني– ردّ، واستأنف مسيره نحو البيت. فتح الباب.

– عمّ تبحث، كونده؟– سأل مانولو مهمهماً، وهو تائه في أفكار رئيسه السابق وزميله حالياً وأسئلته. فهي أفكار وأسئلة تستدعي إجابات غير جاهزة.

– أريد أن أعرف ما الذي حدث في البيت يومي 2 و3 أكتوبر 1958.

وبينما راح المدير يفتح الشبابيك، تقدم كونده نحو غرفة المكتبة، يتبعه مانولو.

– انظر هذا– أشار إلى الصف الثاني من الرفّ القريب من الباب. بين رواية الفخ لإنريكه سيرپا[45] وسيرة موزارت، يبرز مجلد ضخم كتب عليه عنوان باللون الأحمر: *قصّة الأف بي آي*–. راق له العنوان، ويبدو أنّه قرأه أكثر من مرّة. وبحث عمّن يكون كاتب المقدمة: إنّها مقدمة صديقه هوڤر[32]، نفسه الذي أمره بالمراقبة– التفت إلى المدير–: تينوريو، أريد أن أرى جوازات سفر همنغوي وما لديكم من أوراق تتصل بالبيت. وصولات، فواتير، ضرائب...

– حالاً. الأوراق هنا– واتجه إلى درج خشبي.

– مانولو، ابحث لي عن أيّة ورقة تحمل التاريخ بين 2 و4 أكتوبر 58. قل للعريف فليتيس أن يساعدك.

– فليتيس لا يستطيع.

– ما به؟

46– . في نظام التسمية المعمول به في إسبانيا وبلدان أمريكا اللاتينية، يتكوّن الاسم الكامل للشخص من اسم ولقبين: اسمه + لقب عائلة أبيه + لقب عائلة أمّه.

- لقد فرح بالعثور على الرصاصة ونزل إلى البار القريب ليشرب الرون.

- وأين يقع هذا البار الذي لم أره؟

لفّ المدير مرتين حول الطاولة شبه الدائريّة الموضوعة في نهاية غرفة المكتبة ليصفّ بعدها جبلين من الأوراق المحشورة في المحافظ الكارتونية والظروف. تنشق كونده رائحة الورق القديم اللطيفة.

- ممتاز- قال كونده-. وجوازات السفر؟

- في مكتبي. سأذهب لآتي بها.

خرج تينوريو، فاتجه مانولو وجلس وراء المكتب.

- أنتَ تثير أعصابي دائماً، كونده. ما علاقتي أنا بالبحث في هذه الأوراق و...؟

لم يواصل كونده الاستماع له، بل خرج ببطء من المكتبة وهو ينظر إلى الكتب والحيطان والأشياء، فكأنّ فضولاً علمياً يدفعه إلى ذلك دفعاً. رأى من خلال إحدى نوافذ الصالة المدير وهو يتجه نحو مكاتب المتحف الكائنة في الكراج القديم ثمّ يستدير بسرعة نحوغرفة همنغوي الخاصة. في المؤخرة، بالقرب من الحمّام، كانت خزانة ملابس الكاتب، حيث تعلّق بناطيله وجاكيتات الصيد في أفريقيا والولايات المتحدة، وصدريته التي يرتديها حين صيد السمك، ومعطف عسكري سميك، حتى بدلة مصارع ثيران قديمة، مذهبة مزركشة، جاءته بالتأكيد هدية من أحد المصارعين المشهورين الذين كان شديد الإعجاب بهم. على الأرضيّة، وبالترتيب الدقيق للحياة الخياليّة، صفّت جزم رحلات صيد البر والبحر والمراسل الحربي في جبهات أوروبا الحربيّة. كانت الرائحة المنبعثة من المكان تذكّر برائحة جلود ميتة ورائحة مبيد حشرات رخيص ورائحة نسيان. أغلق كونده عينيه وشحذ حاسة شمّه، مستعداً للتسديد إلى هدفه: شيء ما كان ينضح بشرة ودماً في صندوق الذكريات ذاك. مدّ يده لا إرادياً تقريباً نحو علبة أحذية موضوعة بالقرب من الخزانة. المناديل، التي لطخها الزمن، أبدت له وجهه المنمش من داخل العلبة. ورفع كونده بعناية، وبيدين مرتجفتين، من الطرف القماش المطوي ودق قلبه حين اصطدمت عيناه بالظلمة: هناك، كان

سروال الدانتيل، سروال آڤا غاردنر الداخلي، يرقد، نائماً، لكنّه ليس ميتاً. أخرج الشرطي السابق السروال، وهو يعي تماماً فعلة منتهك الأسرار التي يقدم عليها، وتأمّله بعد أن عرّضه للضوء. وبعد أن شعر بكلّ ما شعر به ذات مرّة في داخله، حشره في جيبه وأعاد العلبة إلى مكانها، ثمّ خرج من غرفة الملابس ودخل إلى الحمام المجاور.

حين عاد تنفسه إلى حالته الطبيعيّة، حاول كونده أن يركّز في التواريخ وفي الأرطال التي كان همنغوي يسجلها على حائط الحمّام، إلى جانب الميزان مباشرة. لم تكن الخطوط المتوازية تمثّل التطور التاريخي، فكان على كونده أن يبحث بينها عمّا يشير إلى العام 1958. حين وجدها، بدأ ينزل في صف يبدأ بشهر آب وينقطع في يوم الثاني من أكتوبر من عام 1958 بوزن 220 رطلاً. الملاحظات اللاحقة كانت تخص الأشهر الأخيرة من عام 1959 والأولى من عام 1960، خلال إقامة همنغوي الأخيرة في بيته بهافانا، وقد لاحظ كونده فيها اقترابه من النهاية: فوزن الكاتب يتجاوز بقليل الـ 200 رطل، وفي الملاحظات الأخيرة المأخوذة في تمّوز 1960، ما كان يبلغ بالكاد الـ 190. كانت الدراما الشخصيّة والحقيقية لهمنغوي مسجّلة هناك، على ذلك الحائط الذي يروي شجونه خيراً ممّا تفعله جميعُ رواياته ورسائله ومقابلاته وإيماءاته، هناك، وحيداً مع جسمه، من دون شهود غير الوقت وغير ميزان لا يحسّ ولا يتنبأ. لقد سطّر همنغوي وقائع احتضاره ودنوّ ساعته. سطرها بالأرقام، حين تكون الأرقام أبلغ من الوصف.

وقعُ الخطوات التي كانت تقترب أخرجت كونده من شروده. وأطلّ برأسه من الحمّام، وعلى وجهه براءة العالم مجتمعة، فرأى مدير المتحف وفي يده جوازت السفر التي طلبها.

– أين كان يحتفظ بأسلحته النارية؟ – سأله كونده قبل أن يفتح الآخر فمه.

– هنا، قرب خزانة الملابس، كانت لديه فترينة فيها أسلحة. بقية الأسلحة في الطابق الثاني من البرج، ومعها قطع كثيرة من السلاح الأبيض ومن رماح قبيلة «ماساي»، التي جاء بها في رحلته السفاري التي قام بها عام 1954.

– كم كان التيس مهووساً بالسلاح! والتومسون؟ هل كانت هناك أم هنا؟

– يحتفظ بها عادة هناك، في البرج. هنا كان يحتفظ ببنادق الصيد وبندقية «مانليشر»، التي كان يعلقها دائماً فوق رفّ الكتب.

– أراهن أنّي رأيت التومسون تلك – حاول كونده أن يعصر ذاكرته–. طيب، أيّ جواز كان يستعمله عام 58؟– سأل تينوريو، الذي وضع الجوازات على المكتب، عند ظل رأس الجاموس الأفريقي الكبير الغريب.

– هذا – قال، وناوله واحداً من تلك الجوازات–. يبدأ عام 1957.

قلّب كونده الوثيقة وتفحصها ورقة ورقة، إلى أن عثر على ما كان يطلبه: ختم المغادرة من كوبا، مؤرخ في 4 أكتوبر 1958، وقربه ختم آخر يؤشر الدخول إلى الولايات المتحدة، عن طريق مطار ميامي، فلوريدا، ويحمل التاريخ نفسه.

– نعم. توقف عن الكتابة يوم 2 أكتوبر، ووزن نفسه للمرة الأخيرة في اليوم نفسه، وخرج يوم 4. علينا الآن أن نعرف ماذا فعل يوم 3. ومانولو هو من سيقول لنا ذلك.

في المكتب، كان مانولو قد فرّق معظم الأضابير.

– هذه تخص الممتلكات ووصولات الشراء، ولكنها تخص أعوام الأربعين – قال–. ساعدوني في هذه.

اقترب المدير وكونده.

– ما قلتُ لكم: يوم 3 أكتوبر 1958...ساعده، أنا سأخرج للحظة، أريد أن أدخّن.

خطا كونده خطوتين ثمّ توقف. نظر إلى تينوريو، الذي لم يكن قد تحرك من مكانه.

– صحيح، تينوريو، لماذا لم تقل لي من كان جدّك؟

كانت نظرة تينوريو حامية وقاسية. هو لا يشبه راؤول بيّارّوي في شكله، لكنّ فمه يشبه فم طفلة تظهر في صورة مع همنغوي، وعيناه تشبه عينيها. إنّها ابنة الكاتب بالمعمودية حسب ما هو مكتوب أسفل الصورة وحسب ما قاله له، إن لم تخن كونده ذاكرته، تينوريو نفسه. بدأ الشرطي

السابق يتخيّل أسباب حفيد راؤول لإخفاء هويته، وتبسّم لمّا سمع الردّ الذي كان ينتظره.

– كان همنغوي يقول إنّ راؤول بيّارّوي هو ابنه الرابع. وكان قوله ذاك يُشعر جدّي بالفخر. لذلك كان همنغوي في نظره شخصاً مقدساً، وكذلك كان في نظر أمّي وفي نظري.

– والمُقدسُ لا يمسّ.

– لا بالطبع– أكّد تينوريو، وتوجّه، بعد أن انتهى من شرحه، إلى حيث كان مانولو يراجع بعض الأوراق.

عبر كونده الصالة، وقبل أن يغادر البيت، تأمّل ترتيب الصالة ثانية، بمشاهد مصارعة الثيران والمقاعد الفارغة والبار الصغير، والزجاجة الجافة، التي عقمها الزمن؛ وجال بنظره في غرفة الطعام، حيث جوائز الصيد والطاولة التي صفّت عليها نماذج فاخرة من الأطباق المعلّمة بشعار مزرعة «بيخيّا»؛ في الداخل، حيث الغرفة التي اعتاد همنغوي أن يستخدمها مكتباً، نظر إلى قوائم السرير الذي كان يمضي عليه ساعات قيلولته وساعات سكره. كان كونده يعلم أنّه يوشك على الانتهاء من شيء، فكان يهيئ نفسه لتوديع ذلك المكان. إن كانت هواجسه ما زالت تتمتع بحُسن التصويب ودقّة التسديد، فستنقضي سنوات طويلة قبل أن يعود إلى ذلك المكان، المفعم بالحنين والأدب.

كانت السيجارة ما زالت مطفأة بين شفتيه حين نزل إلى منطقة الحديقة، حيث النافورة وحيث كان رجال الشرطة قد صنعوا حولها حفرة تقرب مساحتها من خمسة عشر متراً مربعاً. عند حافة الحفرة، أسند كونده ظهره إلى جذع شجرة فلفل أسود أفريقي، منزوعة القشرة، أشعل سيجارته وعصر ذاكرته ليتخيّل ما كان موجوداً هناك قبل أربعين سنة: الحلبات التي كانت تستعمل لتدريب الديكة، هي في العادة دائريّة، مثل تلك التي تجري فيها النزالات الحقيقية، وإن كانت محاطة عموماً بجدار ارتفاعه متر واحد، معمول غالباً من أكياس من الخيش أو من سيقان السعف المربوطة إلى عصيّ، لتشكيل دائرة قطرها أربعة أمتار أو خمسة يجري النزال في نطاقها. لم يكن لها من سقف، لكنها كانت تظلل بأشجار المانجو والكارولينا

والفلفل الأفريقي. وقد يمضي المدرب والمتفرجون هناك ساعات طويلة، من دون أن تزعجهم الشمس. تراءى له، وخياله في غمرة نشاطه، توريبيو ألتوثاو، كما يتذكره يوم وجده في حلبة نزال رسمية: كان داخل الحلبة، يرتدي فانيلة من دون ردن، ويحمل ديكاً بين يديه، يستفزّ الحيوان الخصم ليسخنه. يُغطى مهمازا الديكة بالقماش للحيلولة دون وقوع إصابات مؤسفة. عند حافة الحلبة، خلف ساتر من أكياس الخيش، كان همنغوي وكاليستو مونتينيغرو وراؤول بيّارّوي يتابعون المشهد، واهتزّ وجه الكاتب حين أطلق ألتوثاو الديك الذي كان يحمله بين يديه، واندفع الديكان يتقاتلان، يرفعان المهمازين القاتلين، اللذين جرّدا من قوتهما وباتا مجرد زينة، ويطيّران بحركة أجنحتهما نشارة الخشب التي تغطي الأرض... نشارة الخشب... تأمّل كونده نشارة الخشب تتحرك بين أرجل الديكة وأومضت في رأسه فكرة: لقد دفنوا الرجل في المكان الوحيد الذي لا يثير قلبُ الأرض فيه ريبة. حفرة تحفر، ثمّ يعاد التراب إلى مكانه، ثمّ تغطّى بنشارة الخشب من جديد.

من دون عجلة، عاد كونده إلى البيت وجلس على بسطات درج المدخل. إن كان يعرف عن همنغوي شيئاً، فهو يعلم أنّ مانولو سيخرج من البيت ومعه وثيقة مؤرخة في 3 أكتوبر 1958. لذلك لم يضطرب حين سمع صوت الملازم وهو يتقدم منه حاملاً في يده وصلاً.

– ها هو، كونده.

مكتبة
t.me/t_pdf

– كم دفع له؟

– خمسة آلاف بيزو...

– مال كثير. حتى على همنغوي.

– من هو كاليستو مونتينيغرو؟

– موظف غريب الأطوار من موظفي المزرعة. كان همنغوي قد طرده من العمل ذلك اليوم، دفع له تعويضاً وحمله، إن لم أكن مخطئاً، في *البيلار* ومن هناك إلى المكسيك.

– ولماذا؟

– لأنّه، أظنّ، كان الوحيد الذي حضر قتل عميل الأف بي آي...، وإن كنتُ متأكداً من أنّه لم يكن الوحيد الذي شهد دفنه في حلبة النزال.

– ولكن من قتل الرجل؟

– ما زلت لا أعرف، ربّما نستطيع أن نتحقق من ذلك الآن. أقصد، إن لم تكن مستعجلاً جداً وشئت أن تذهب معي إلى «كوخيمار».

***

– مساء الخير، روبيرتو.

– أراك جئت ثانية؟

– نعم، لكنّي جئتُ هذه المرة مع الشرطة. الأمور لا تبشّر بالخير. أقدّم لك الملازم مانويل پلاثيوس.

– إنّه أنحفُ من أن يكون ملازماً – قال روبيرتو وابتسم.

– وهذا ما أقوله أنا أيضاً – أضاف كونده وجلس على الحجر ذاته الذي جلس عليه ذلك الصباح. ظلّ روبيرتو مستنداً إلى الشجرة، مقابل مرسى النهر، وقبعته محشورة في رأسه. بدا كأنّه لم يتحرّك من ذلك المكان، وكأنّ حديث الصباح لم ينقطع بينهما إلا هنيهة. ما كان من دليل على مرور ساعات على لقاء الصباح إلا سيجارة بين أصابعه، بلغتْ نهايتها وراحت تنبعث منها رائحة عشب متفحم.

– كنتُ أعلم أنّك ستعود...

– هل تأخرتُ كثيراً...؟– سأله كونده، وهو يشير على مانولو بالجلوس على حجر آخر قريب. رفع الملازم الحجر وقرّبه من الشجرة.

– الأمر نسبي. فالوقت عندي شيء آخر. تأمّلا – رفع ذراعه–، أنا أراه كأنّه هناك، على الجانب الآخر من النهر.

– بين الأشجار– أتمّ كونده.

– هناك بالضبط، بين الأشجار– أكّد روبيرتو–. من هناك، أشياء كثيرة تبدو مختلفة، أليس كذلك؟

هزّ كونده رأسه موافقاً وأشعل سيجارته. أمّا مانولو، فقد راح، من مقعده

الحجري، يبحث لمؤخرته عن مكان يريحها، ويتأمّل العجوز، ويحاول أن يتخيّل استراتيجيّة صديقه.

– حسناً روبيرتو، من هذا الجانب من النهر أنا أرى الأشياء هكذا: ليلة 2 أكتوبر 58 قتل عميل للأف بي آي في مزرعة «بيخيّا». كان اسمه جون كيرك، فربّما يهمّك أن تعرف ذلك، أم إنّ تينوريو لم يخبرك...

انتظر كونده أن تبدر ردة فعل من روبيرتو، لكنّ هذا واصل النظر إلى شيء لا يراه، هناك عبر النهر، بين الأشجار: ربّما كان ينظر إلى الموت.

– همنغوي سافر من كوبا يوم 4، والغريب أنّه قطع عملاً مهماً جداً، ولم يستطع بعد ذلك إتمامه. سافر إلى الولايات المتحدة، كما قال، للقاء زوجته التي كانت تعيش هناك. لكنّه طرد كاليستو يوم 3 ودفع له تعويضاً. أعطاه خمسة آلاف بيزو. مال كثير، أليس كذلك؟

شعر روبيرتو بالحرّ. خلع قبعته الجميلة ومرّر يده على جبهته. للعجوز يدان عظيمتان، غير متناسبتين، تقطعهما التجاعيد والندوب.

– التعويض الطبيعي هو مرتب شهرين أو ثلاثة أشهر...، وكاليستو كان يقبض مئة وخمسين بيزو. كم كنت تقبض حضرتك؟

– مئتين. كنتُ أنا وراؤول أعلى الآخرين راتباً.

– صحيح أنّه كان يدفع جيداً– قال مانولو، الذي لم يكن يقوى على أن يظلّ صامتاً مراقباً، لكنّ كونده رمقه بنظرة، طالباً منه الامتثال إلى أمره، كما حين كانا يشكّلان ثنائياً مميّزاً، حين كان المدير العجوز، وهو أفضل من ترأس قسم التحقيقات في الجزيرة، يكلفهما بالعمل معاً، بل كان يغض الطرف عن بعض تجاوزاتهما لكفاءتهما.

– قتل جون كيرك برصاصتين– واصل كونده كلامه، بينما راح يرسم بغصن صغير شيئاً على الأرض، أمام قدميه–. برشاشة تومسون. وهمنغوي كان يمتلك رشاشة من نوع تومسون، لكنّها اختفت. لم نجدها في البيت وقد تأكد لنا أنّ مس ماري لم تأخذها بعد انتحاره. تلك الرشاشة كانت سلاحه المفضّل، بل لقد ذكرها حتى في رواياته، في ما أظن. هل تتذكر تلك الرشاشة؟

– نعم – وضع العجوز قبعته على رأسه ثانية–، كانت لقتل أسماك القرش. أنا نفسي استعملتها عدّة مرّات.

– ممتاز. الرشاشة نفسها. بعد موت العميل، دفنوه في المزرعة. لم يدفنوه في مكان ما مصادفة، بل دفنوه في حلبة مصارعة الديكة، القريبة جداً من البيت. أزالوا النشارة من على الأرض، وحفروا الحفرة، وألقوا بجثة الرجل وبشارته، وطمروه بالتراب. ثمّ أعادوا نشر النشارة ورشّها بالماء لكي لا ينتبه أحد إلى الحفرة...إذا لم أخطئ، فإنّ ذلك وقع قبل حلول فجر يوم 3 ووصول العمّال إلى المزرعة.

فاجأت الابتسامة المختصرة التي حرّكت شفتي العجوز كونده وجعلته يشك في صواب تحليله ويخشى أنّه تاه في أحد دروب الماضي المظلمة. لذلك انطلق في عرض نظريته مستعداً للوصول بها حتى نهايتها.

– أعتقد أنّ ثلاثة رجال أو أربعة حضروا دفن الجثة، للعجلة. وأظنّ أيضاً أنّ واحداً من هؤلاء الثلاثة هو من قتل ذلك الشرطي: كاليستو مونتينيغرو أو راؤول بيّارّوي أو سيدهما، إرنست همنغوي. لكنّي لن أستغرب إن اكتشفتُ أن يكون من قتله هو توريبيو ألتوثاو...أو حضرتك، روپيرتو.

وانتظر كونده ثانية ردة فعل روپيرتو، لكنّ العجوز ظلّ ساكناً، وكأنه يقف في مكان لا تصل إليه كلمات كونده ولا حرّ ذلك المساء الدبق ولا هجمات الذاكرة. خفض كونده نظره وانتهى من الرسم الذي كان قد خطّه بالغصن فوق التراب: كان يحاول أن يكون الرسمُ شيئاً يشبه يختاً ذا هوائيين فوق السطح، يعوم في بحر هائج مائج.

– حينئذ دخل *الپيلار* في المشهد– قال، وضرب الأرض بالغصن. خفض روپيرتو ببطء بصره نحو الرسم.

– لا يشبهه– قال.

– حين كنتُ في الصف الأول الابتدائي رسبت في الرسم والأعمال اليدويّة. كنتُ كارثة طوال حياتي... بل لم أصنع قارباً ولا من ورق– شكا كونده–. لكن *الپيلار* أبحر فعلاً يوم 3 وحمل كاليستو إلى المكسيك. همنغوي لم يذهب معه في تلك الرحلة، فقد كان عليه أن يجهّز لسفره من

كوبا في اليوم التالي. أمّا أنتَ فقد ذهبت معه لأنّ هذا اليخت لم يكن يقوده إلا واحد منكما. وكان أحد عمّال المزرعة هو القبطان. هل كان راؤول؟ هل كان توريبيو؟ أظنّ أنّه كان توريبيو، لأن راؤول بقي، على ما أظنّ، ليساعد بابا. في تلك الرحلة، بالمناسبة، اختفت رشاشة التومسون، التي تقبع في مكان ما من خليج المكسيك، أليس كذلك؟

ورسم كونده، بالغصن الذي بيده، قوساً انطلق من اليخت ليسقط في البحر الهائج الذي صنعه خياله. أسقط الغصنَ من يده ونظر إلى العجوز، مستعداً لسماع ما يقول. ظلّ روبيرتو ينظر إلى الضفة الأخرى من النهر.

– هل تعتقد حضرتك أنّك تعرف كلّ شيء؟

– أبداً، روبيرتو. أنا أعرف بعض الأمور، وأخمّن أموراً أخرى، وأتمنّى أن أعرف أموراً أكثر. لذلك أنا هنا: فحضرتك تعرف بها. إن لم تكن كلّها، فبعضها على الأقل...

– ولو افترضنا أنّ ما تقوله صحيح، فما الذي يجبرني على أن أصرّح لك بها؟

بحث كونده عن سيجارة وحشرها بين شفتيه. لكنّه توقف وعود الكبريت في يده.

– لدي جملة من الأسباب. أولها، لأنّي لا أفترض أنّ حضرتك القاتل؛ ثانيها لأنّ حضرتك رجل أصولي. كان في مقدورك أن تبيع *البيلار*، لكنّك سلمته إلى الحكومة ليضعوه في المتحف، والمركب يساوي آلاف الدولارات. كنت بتلك الأموال تستطيع أن تغيّر حياتك. لكنّك قدمت ذكرى بابا على المال. وهذا شيء غريب، ما عاد مألوفاً، بل يبدو فعلاً أحمق، لكنّه فعل رائع أيضاً، وبادرة فيها الكثير من معاني النزاهة والاستقامة. أمّا السبب الثالث فهو أنّ همنغوي قد يكون هو من قتل عميل الأف بي آي، وقد لا يكون هو. إن كان هو الذي قتله وقلنا إنّه هو القاتل، فسيمزقونه إرباً. الناس ما عادت تحب هذا النوع من الرجال: فهو كثير المشاكل كثير العراك كثير الاستعراضات. ثمّ إنّه، وقد لا تصدقني، أساء إلى الكثير من الناس. قد لا يكون همنغوي هو من قتل العميل، فيكون هذا الرجل المتعجرف، الذي ما عاد الناس يحبونه كثيراً، قد صنع ما هو جدير بالثناء والتقدير: حين اختار

أن يوفّر الحماية والغطاء لعامل من عمّاله قتل عنصراً من الأف بي آي، بل أخفى جثة القتيل في مزرعته. وهكذا يكون، وبعيداً عن أيّ اعتبار آخر، قد أقدم على بادرة طيبة، ألا تظن ذلك؟ وقد قلتُ لك إنّه من غير الإنصاف أن يلصقوا تهمة قتل إنسان بشخص بريء...

رفع روبيرتو عقب السيجارة إلى شفتيه وحرك ظهره على الشجرة باحثاً فيما يبدو عن وضعيّة أفضل لبدنه وأفكاره. بدأت رطوبة خبيثة تنشأ في قاع تجاعيده. وقرر كونده أن يلعب آخر أوراقه ورفع رهانه إلى الكلّ أو اللا شيء. لكنّه أشعل قبل ذلك سيجارة.

– ما حدث ليلة 2 أكتوبر 58 كان كارثة بالنسبة إلى همنغوي. لا أدري إن كنت حضرتك تعرف أنّه كان في سنواته الأخيرة يقول إنّ الأف بي آي تلاحقه. زوجته لم تكن تصدق ما يقول. وقال الأطباء إنّها تهيؤات، ضرب من هوس الاضطهاد. ولعلاج ذلك أخضعوه إلى خمس وعشرين صدمة كهربائية. ممتاز!– هتف كونده على الرغم منه–. أعطوه في البداية خمس عشرة جلسة ثمّ عشر جلسات أخرى. أراد الأطباء أن ينسى ذلك الهوس الذي كان يحمله إلى حافة الجنون، لكنّهم لم يكسبوا غير أنّهم أحرقوا دماغه لكي يعمدوا من بعدُ إلى حشوه بملايين الحبوب... قتلوه حيّاً. لم يستطع همنغوي أن يعاود الكتابة بعد أن خرّبوا، مع الهوس المزعوم، جزءاً من ذاكرته، ولا يمكن لأيّ أحد أن يكتب من دون ذاكرة. وهو كان كلّ شيء، كان ابن قحبة حتّى، لكنّه كان كاتباً في المقام الأوّل. ألخّص لك حالته في كلمتين: لقد فقسوا بيضتيه. وهذا شيء مؤلم، روبيرتو. ليكن في علمك أنّ بابا لم يكن يعاني لا من السرطان ولا من أيّ مرض عضال: لقد أخصوه، وهو الذي طالما تاه على الناس بخصيتيه، إلى درجة أنّه أراهما لكثيرين، لكنّه انتهى مخصيّاً هنا– وضرب كونده على صدغه بيد مفتوحة، مرتين وثلاث مرات بقوّة وغضب، حتى شعر بألم–: ومن دون هذا ما كان في مقدوره أن يعيش. لذلك أطلق النار على رأسه، روبيرتو، لا لشيء آخر. وتلك الطلقة خرجت من ماسورة البندقية ليل 2 أكتوبر 58... وإن لم يكن هو من قتل ذلك العميل، فلا شكّ أنّ تستره على الفاعل الحقيقي كلّفه غالياً. أليس كذلك، روبيرتو؟

كان كونده يعرف أنّ سيفه قد عمل تقطيعاً في لحم الذاكرة. ولم يندهش حين تحقق له أنّ بين تجاعيد وجه روبيرتو الطويلة المتعرقة، سالت الدموع أيضاً من عينيه. لكنّ العجوز جفف دموعه بيده وبدا كأنّه مستعد للنزال.

- بابا كان مصاباً باللوكيميا. ولذلك انتحر.

- لم يثبت أحدٌ أنّه كان مصاباً باللوكيميا.

- كان وزنه في تناقص. لقد هزل كثيراً.

- نزل وزنه إلى مئة وخمسة وخمسين رطلاً. بدا جثة.

- من المرض... وهل أصابه هزال شديد؟

- كانت خمساً وعشرين صدمة كهربائيّة، روبيرتو، وآلاف الحبوب. ولولا ذلك لكان ربّما ما زال على قيد الحياة، مثل حضرتك، ومثل توريبيو. لكنّهم دمروه، وقد لا أسيء الظن إن فكرتُ أنّ الأف بي آي تقف وراء تلك الصعقات. كانوا يريدون التخلّص منه بسبب شيء كان همنغوي مطلعاً عليه أو يحسبون أنّه مطلع عليه... صار القاصي والداني يعرف الآن أنّ الأف بي آي كانت تلاحقه فعلاً. كان مدير هؤلاء الناس يكرهه حتى إنّه ألمح ذات مرة إلى أنّ همنغوي لوطي.

- هذا كذب!

- لذلك فإنّ أسوأ ما يمكن أن يقع له الآن هو أن تقع عليه تهمة قتل هذا العميل...فماذا ترى، روبيرتو، ننقذه أم نغرقه؟

عاود العجوز تجفيف دمعه الذي بلل وجهه، ولكن بحركة متعبة. وأحسّ كونده بالدناءة: فهل من حقه أن يسرق من رجل عجوز أجمل ذكريات حياته؟ عندها فكّر أنّه ما ترك الشرطة إلا لكي لا يضطر إلى أن يقوم بأعمال مزرية كهذه.

- كان بابا في نظري أعظم ما في هذا العالم. - قال روبيرتو، وقد تكسّر صوته-. لقد أطعمني منذ أن عرفتُه حتّى هذا اليوم، وهذا شيء يستحق عليه الشكر.

- الشكر هنا واجب، طبعاً.

- أنا لا أعرف من قتل السافل هذا الذي دخل إلى المزرعة- قال،

من دون أن ينظر إلى محاوره: كان يتكلّم كأنّه يخاطب شيئاً بعيداً، ربّما الرب-. لم أسأل عن الأمر. ولكن حين طرق توريبيو عليّ الباب، حوالي الثالثة فجراً، وقال لي: «هيّا بنا، بابا يطلبنا»، ذهبتُ أنا أيضا إلى المزرعة. كان راؤول وكاليستو يحفران الحفرة بينما كان بابا يحمل مصباحه اليدوي. بدا عليه القلق، لكنّه لم يكن متوتراً، متأكّد. كان يعرف ما يجب فعله.

- حدثت مشكلة، روپيرت. لكنّي لا أستطيع أن أقول لك أكثر. مفهوم؟

- لا داعي، بابا.

لم يقل شيئاً أيضاً لتوريبيو، لكنّي أظنّ أنّه حكى بذلك لراؤول، لأنّ راؤول كان منه بمنزلة الولد. وأنا لا أعرف أنّ كاليستو كان على علم بما حدث تلك الليلة.

- ساعدوا في الحفر- قال لنا عندها.

تناولنا أنا وتوريبيو الرفشين. بعد ذلك، بيني وبين كاليستو، وكنّا الأقوى، حملنا الرجل. ما كان أثقل تلك الجثّة. كانت ملفوفة بملاءة، وموضوعة عند مدخل المكتبة. أخرجناه كيفما استطعنا وألقينا به في الحفرة. وعندها ألقى بابا بالنشارة.

- راؤول وتوريبيو، ألقيا عليه التراب ورتّبا أرض الحظيرة من جديد. لا تتأخرا، فالصبح وشيك ولن تلبث دولورس والبستاني أن يصلا. كاليستو وروپيرت، تعالا معي.

وعدنا ثلاثتنا إلى البيت. في مكان الجثة كانت هناك بقعة من الدم تجف.

- روپيرت، نظّف المكان، عليّ أن أتكلّم مع كاليستو.

بدأت أنظف الأرضية من بقعة الدم، وما أكثر ما كلفتني إزالتها! لكنّ الأرضية بقيت نظيفة. في تلك الأثناء، كان بابا وكاليستو يتكلمان في المكتبة، بصوت منخفض. وقد رأيت بابا وهو يسلمه شيكاً وأوراقاً.

- هل انتهيت روپيرت؟ حسناً، تعال. الآن تأخذ البيوگ وتذهب مع كاليستو وتورينيو. تخرج *الپيلار* وتحمل كاليستو حتى «مريدا» ثمّ تعود مباشرة. وألقوا بهذه في البحر.

تناول بابا التومسون ونظر إليها للحظة. كان يؤلمه أن يفارقها. كانت سلاح ولده جيجي المفضل.

- سنرى أيّة حكاية سأخترع لجيجي.

- طبعاً - صاح كونده-، أنا شاهدتها في صورة، وكان ابن همنغوي يحملها بين يديه.

- كانت صغيرة وسهلة الاستعمال - عقّب روبيرتو.

- استمر رجاءً.

- لفّها بابا في الشرشف، مع مسدس أسود، أظنّه عيّار 38، وسلّم كاليستو اللفة.

- هيّا، فالصبح وشيك.

ضربني هنا، على قفاي، وصافح كاليستو وقال له شيئاً لم أسمعه جيداً.

- كان السافل يستحق ما جرى له، إرنستو.

كان كاليستو الوحيد بيننا الذي يدعو بابا باسمه.

- ستحقق حلمك. استمتع بالحياة في بيراكروث. سأبلغك إن وقعتُ في غرام كوبيّة.

كان ذلك ما قاله بابا. حين خرجنا، كان راؤول وتوريبيو قد انتهيا من مهمتهما، وذهبنا ثلاثتنا في البيوگ. أنا فعلتُ ما طلبه منّي: أخذت كاليستو إلى «مريدا». وفي الطريق، رمى كاليستو بالتومسون والمسدس في البحر وظلّ الشرشف عائماً إلى أن غاب عن أنظارنا. حين عدتُ في اليوم التالي ليلاً وذهبتُ إلى المزرعة لإعادة البيوگ، قال لي راؤول إنّ بابا ذهب إلى المطار، لكنّه ترك لي ولتوريبيو رسالة- توقف روبيرتو ورمى بعقب السيجارة في النهر-. أبلغنا راؤول بكلماته التي قال لنا فيها إنّه يحبّنا كما لو كنّا أبناءه وأنّه يثق بنا لأننا رجال... كلمات تبعث على الفخر، أليس كذلك؟

***

مكتبة
t.me/t_pdf

-6-

يقول أبناءُ قبيلة «الماساي» إنّ الرجل بلا سلاح لا يساوي شيئاً. لكنّ خير ما تعلمه هؤلاء في قرون من التعايش مع السهوب الخطيرة في أرضهم هو أنّ الرجل، من دون رمحه، يساوي أقلّ من اللاشيء. كان هؤلاء الأفارقة، وهم صيادون أباً عن جد وعدّاؤون أشداء، يتحركون في جماعات، ويتحاشون القتال ما أمكنهم تحاشيه، مع ذلك فهم ينامون ورماحهم في أحضانهم، وحرابهم في أحيان كثيرة معلقة في أحزمتهم، ليحظوا، هكذا، بحماية إله المراعي. ومرّت صورة الرجال الذين يتسامرون حول النار ويحملون رماحهم بأيديهم، تحت سماء سوداء خالية من النجوم، كالبرق في ذهنه، الذي اجتاز، من دون جهد كبير، حالة النعاس إلى حالة الصحو. ركّز نظره من خلال زجاج نظارته المضبب ورأى الدخيل المجهول يحمل بين يديه سروال آڤا غاردنر الأسود والمسدس عيار 22.

ظلّ الدخيل ساكناً، يتطلّع إليه، وكأنّه لا يدرك أنّه قادر على فتح عينيه والنظر إليه. كان رجلاً له ضخامة كضخامته وجسامة كجسامته، وله سنه تقريباً، لكنّه كان يتنفس بصعوبة، ربّما من الخوف، أو ربّما من وطأة كرشه. يضع على رأسه قبعة سوداء، ضيقة الأطراف، ويرتدي جاكيت وربطة عنق غامقتين، وقميصاً أبيض. ما كانت به حاجة للشارة لكي يعرّف الآخرين بمهنته. شعر بالارتياح حين عرف أنّه شرطي وليس قاطع طريق، لكنّه شعر بالإهانة من شدة ما داخله من الخوف.

نزع نظارته وهو بعد مستلقٍ لينظفها بالشرشف.

- يُستحسن ألا تتحرك - قال الرجل، بعد أن أخرج المسدس وألقى بالسروال الأسود إلى الأرض-. لا أريد مشاكل. لا أريد أيّة مشكلة، رجاءً.

- هل أنت متأكّد؟- سأله، وهو يعيد النظارات إلى عينيه. رتّب جلسته على السرير وحاول أن يبدو هادئاً. تراجع الرجل خطوة إلى الوراء، بشيء من الصعوبة-. حضرتك تدخل إلى بيتي وتقول إنّك لا تريد مشاكل.

- لا أريد غير شارتي ومسدسي. أخبرني أين هما وسأنصرف.

- عمّ تتحدّث؟

- لا تتصنّع الغباء، همنغوي. أنا كنتُ سكران، لكنّي لست غبياً... لقد ضاعت شارتي ومسدسي منّي تحت. هل لك أن تسكتَ هذا الكلب اللعين.

بدأ الرجل يتوتر فأدرك صاحبنا أنّه، هكذا، قد يكون خطيراً.

- سأنهض - قال وأظهر له يديه.

- هيّا، أسكت الحيوان.

لبس صندله، وكان قريباً من السرير، وسار نحو الصالة، ففسح له الآخر والمسدس لا يفارق يده. حين مرّ من جانب الرجل شمّ رائحة العرق الحامضة والخوف، التي لم تكن لتنافس رائحة الخمر المنبعثة منه أيضاً. ومع أنّه فضّل ألا ينظر ناحية الرف في الزاوية، فقد كان واثقاً من أنّ التومسون ما زالت في مكانها، وإن لم يكن يجد ضرورياً اللجوء إليها. فتح نافذة الصالة وصفّر للكلب. حرّك *بلاك دوغ* ذيله حين سمع صفير سيده.

- لا بأس عليك، *بلاك دوغ*...، اهدأ، واسكت، فقد أثبتّ لي أنّك كلبٌ عظيم.

رفع الكلب قائمتيه على حافّة النافذة، وكان ما يزال يزمجر ويرفع أذنيه.

- هذا يكفي، اهدأ- أضاف وداعبَ رأسه.

حين التفتَ كان الشرطي ينظر إليه ساخراً، لكنّه بدا أكثر هدوءاً. فاطمأنّ.

- أعطني شارتي ومسدسي لأنصرف، فأنا لا أريد مشاكل مع حضرتك... هل يمكنني أن أتناول شراباً؟

وأشار بالمسدس إلى البار الصغير بين الأريكتين.

- تناول ما تشاء.

اقترب الرجلُ من البار فلاحظ صاحبنا أنّه يعرج في قدمه اليمنى. تمكن، والمسدس في يده، من فتح فلينة زجاجة الجن وصبّ نصف كأس له. بدأ بجرعة طويلة.

– الجنّ يعجبني كثيراً.

– الجنّ فقط؟

– الجنّ أيضاً. لكنّي اليوم أسرفتُ في الرون. المشكلة أنّ الواحد يطمع في الشرب ثمّ...

– لماذا أتيتَ إلى بيتي؟

ابتسم الرجل. كانت أسنانه الكبيرة، وغير المنتظمة، قد اسودّت من التدخين.

– شيء روتيني. نأتي من حين إلى آخر، نلقي نظرة، نرى من هم مدعووك، نرفع تقريراً. اليوم كانت الأمور هادئة ففكرتُ أن أقفز من وراء الحاجز...

شعر صاحبنا بموجة غضب كانت كفيلة بأن تجرف البقيّة الباقية من الخوف الذي شعر به حين كان راقداً على السرير.

– ما هذه الحماقات التي تتفوّه بها؟

– على رسلك، همنغوي. ليس الأمر خطيراً إلى هذا الحد. لكي تفهمني، سأشرح لك الأمر بطريقة أخرى: حضرتكَ تحب الشيوعيين، ونحن لا نحبّهم. لديك في فرنسا وفي إسبانيا، وحتى في الولايات المتحدة، أصدقاء شيوعيون كثيرون. وهنا أيضاً. طبيبك، مثلاً. وهذا البلد داخلٌ في حرب، وحين تكون هناك حرب فإنّ الشيوعيين يمكن أن يشكّلوا خطورة بالغة. قد لا يكشرون عن أنيابهم، لكنّهم ينتظرون فرصتهم دائماً، متربصين.

– وما علاقتي أنا بهذا؟

– حتّى الآن يبدو ألا علاقة لك بهذا. لكنّ حضرتك تتكلم كثيراً، ومعلوم أنّكَ تبرّعتَ لهم ببعض المال. أليس كذلك؟

– المال مالي وأنا...

– انتظر. انتظر. أنا لم آت إلى هنا لأجادلك حول مالك أو حول ميولك. أنا أريد شارتي ومسدسي فقط.

– أنا لم أرَ شارة ولا مسدساً.

– لا بدّ أنّك رأيتهما. فقدتهما بين السياج والمسبح. وقد بحثتُ عنهما في كلّ مكان فلم أجدهما. لا بدّ أنهما سقطا حين قفزت من وراء الحاجز... انظر ما حدث لي.

أدار الشرطي ظهره لكي يعاين صاحبنا أنّ جاكيت الشرطي قد تمزّقت في تلك المنطقة.

– أنا آسف. ليس عندي أيّ شيء ممّا تقول. أعطني مسدسي وانصرف.

عبّ الرجلُ جرعة أخرى ووضع الكأس فوق رف وبحث عن سيجارة. أشعل السيجارة ونفث الدخان من أنفه، وهو يسعل. تندت عينا الشرطي من أثر السعال فبدأ كأنّه يبكي. فعاود الكلام.

– أنت تعقّد عليّ حياتي، همنغوي. في ديسمبر سأتقاعد بعد أن أمضيت خدمة مدّتها ثلاثون سنة مع علاوة بسبب إعاقتي البدنيّة: لقد هشّم ابن قحبة ركبتي فانظر كيف أصبحتُ... ولا أستطيع بالطبع أن أقول إنّي أضعتُ شارتي ومسدسي وأنا أدخل في مزرعتك. هل تفهمني؟

– سيكتشفون الأمر على أيّة حال، حين أبلّغ أنا الصحفيين بالموضوع...

– اسمع. لا تفقع خصيتيّ.

– أمّا حضرتك فتفقعهما لي، بل وتركلهما، أليس كذلك؟

هزّ الرجل رأسه، نافياً. كان يتكلّم ويدخن من دون أن يزيح السيجارة عن شفتيه.

اسمع، همنغوي: أنا لا شيء، ولا وجود لي، أنا رقم في قائمة طويلة. فلا تعقد عليّ حياتي، رجاءً. لا دخل لي بالتقارير التي كتبت عن حضرتك. مهمتي هي مراقبتك فقط. أنتَ وخمسة عشر أمريكياً آخرين، مجانين، كحضرتك، موجودين في هذه المدينة من المغرمين بالشيوعيين.

– هذا تجاوز...

– صحيح. تجاوز. اذهب إلى واشنطن وقل ذلك للمسؤول الأعلى أو للرئيس، وليس لي، فهذان هما من أعطيا الأمر، وبينهما وبيني أكثر من ألف مسؤول...

– ومنذ متى وأنتم تراقبونني؟

– وما أدراني...، منذ الثلاثينيات، أظنّ. أنا بدأت قبل سنتين، حين أرسلوني إلى سفارتنا في هافانا. واللعنة على الساعة التي وافقتُ فيها على المجيء إلى هذا البلد القذر، انظر كيف أتعرّق، وهذه الرطوبة التي تقضي على ركبتي، والرون الذي يصعد في رأسي... ما الذي جعلك تتورط بالمجيء إلى هنا ولديك ما لديك من المال؟

– وماذا كتبتَ عنّي؟

– لا شيء غيرَ معروف – ونزع أخيراً السيجارة من بين شفتيه، وتناول جرعة أخرى لينتهي من الكأس–. أين أستطيع أن أرمي بالرماد؟

تحرّك صاحبنا حتى وصل إلى الرف، تحت النافذة، وبدا له مستهجناً أن يلطّخ الرجلُ بسجائره منفضة الزجاج الفينيسي الرائعة تلك، هديّة صديقته القديمة مارلين ديتريش[29] له. رمى بها إلى الشرطي، فتلقفها هذا بخفّة، على الرغم من سنّه ووزنه.

– شكراً – قال وابتسم، وهو راضٍ عن رشاقته وخفّته.

– لم تقل لي ماذا كتبت عنّي– كرّر عليه.

– رجاءً، همنغوي... لا بدّ أنّك تعلم بأنّ المدير هوڤر لا يحبّك، أليس كذلك؟– بدا الرجل متعباً. رفع صاحبنا نظره ولاحظ أنّ ساعة الحائط كانت تشير إلى الواحدة وخمسين دقيقة–. قلتُ ما يعرفه القاصي والداني: مَن يأتي إلى بيتك؟ ماذا يفعلون حين تقيم حفلة؟ كم من أصدقائك شيوعيون؟ وكم يشتبه في أنّهم شيوعيون؟ لا أكثر. أمّا ما يتصل بحبّك للشرب والأشياء القبيحة في حياتك الخاصة فهي في الملف من قبل أن أصل إلى كوبا. ثمّ إنّي لا أستطيع أن أطيل الكلام عن زملائي وأنا مخمور على هذا النحو – حاول أن يبتسم.

أحسّ بوخزة في صدغه، قادرة على أن تتحوّل فوراً إلى ثقل في الجهة الخلفية من رأسه، قريباً من قاعدة الجمجمة. كانت تلك أول إشارة إلى ارتفاع ضغطه. وما لبثت أن ارتفعت حرارة أذنيه. لم يسبق له أن شعر بتلك الأعراض وبتلك الطريقة الواضحة. ما الأشياء القبيحة التي يمكن أن تقال

عن حياته الخاصّة؟ وماذا يعرف عنه أولئك الحرس الذين يسيحون فوق سطح الأرض يحظون بالحصانة؟

- عمّ تتكلّم حضرتك؟

- أليسَ من الأفضل أن تعطيني شارتي ومسدسي لأنصرف وينتهي كلّ شيء على خير وسلام؟ أعتقد أنّ هذا هو الحل...

فكّر صاحبنا لحظة وقرّر.

- لم أر المسدس. أمّا الشارة فكانت بالقرب من المسبح، تحت التعريشة.

- طبعاً- ابتسم الرجل-، كنتُ أعرف ذلك. جلستُ قليلاً لأدخن سيجارة. كانت ركبتي تؤلمني... والمسدس الملعون، ألم يكن معها؟

- سأعطيك الشارة إن أخبرتني عمّا كتب في تلك الإضبارة؟

سحق الشرطي سيجارته في قاع المنفضة وتركها على الأرضيّة، فوق السجّادة.

- بحق الربّ، همنغوي. لا تفلقني أكثر ممّا أنا مفلوق وأعطني الشارة- احتدّ صوته وراحت نظرته تشي بالعداوة والجزع.

- الشارة مقابل المعلومات!- صرخ صاحبنا وبدأ *بلاك دوغ* ينبح ثانية.

- أسكت هذا الكلب القذر. سيأتي الحارس.

- المعلومات!

- اللعنة على...- رفع الرجل المسدس وصوّبه إلى صدره-. أسكت الكلب وإلا سأسكته أنا بطريقتي!

- إن قتلتَ الكلبَ فلن تخرج من هنا حيّاً. فخير لك أن تتكلّم.

بدأ الرجل يتصبب عرقاً. كان العرق يتدفق من جميع مساماته، وقطراته تغطّي كلّ وجهه. حرّك قبعته من الخلف من دون أن يحيد المسدس عن هدفه ومسح بيده اليسرى جبهته.

- لا تكن أحمق، همنغوي، لا أستطيع أن أخبرك بذلك.

- أعرف أنّك ستقتلني ما إن تحصل على شارتك ومسدسك. فعليك أن تقتلني.

- لن يموت أحد إن أنتَ أعطيتني حاجتي.

- إن لم تتكلم فلن أعطيك الشارة. سأنادي على الحارس.

كان بلاك دوغ ما زال يعوي حين تقدم صاحبنا خطوة نحو النافذة. في تلك اللحظة، أحسّ بأنّ رأسه يوشك أن ينفجر وأنّه ما عاد قادراً على التفكير. ما كان يشغل باله إلا أنّ عليه أن يستغلّ يأس الشرطي ليحمله على الكلام. تأخر العميل لحظة، بعد أن فوجئ بحركة صاحبنا. تقدّم ثلاث خطوات ومدّ إحدى ذراعيه ليمسك به من كتفه. وحين تمكن من إيقافه، دفع به إلى الخلف. لكنّ صاحبنا كان قد تمكن من الأمساك بواحد من شمعدانات الفضة القويّة، ثمّ استدار بذات الاندفاع ليضرب الشرطيّ عند مستوى عنقه. كانت ضربة شديدة، لكنّها لم تكن سديدة. تراجع الشرطي وقد وضع يده اليسرى على مكان الضربة وبسط اليمنى محاولاً التسديد على الكاتب بالمسدس من عيار 22.

– ماذا فعلتَ...! سأخلّص عليك، أيّها اللوطي القذر!

هل هذه النهاية، أيّها الفتى؟، فكّر. دوّى الانفجار الأوّل فهزّ البيت هزّاً، وخطا الشرطي خطوة نحو اليسار، واضعاً يده على بطنه. حاول عنصر الشرطة، وقد صار يترنّح كالسكران، أن يحافظ على توازنه ليعاود وضع هدفه في فرضة المسدس. وحين انتهى من التسديد، عاجلته رصاصة ثانية، وكانت أخفّ وألطف، فكأنها ركلة بالرجل، فسقط على جنبه، وقد فتح عينيه ووضع يسراه مفتوحة على بطنه ويمناه مطبقة على السلاح.

عند باب الغرفة، خفض كاليستو التومسون، بينما وقف راؤول، بالقرب منه، وهو يصوّب مسدساً أسود برّاقاً، ما زال الدخان ينبعث منه، وقد عكس كلّ رجفة اعترت يده التي تحمله. خفض راؤول أيضاً السلاح، بينما دنا كاليستو من الرجل الساقط. داس بجزمته على اليد التي كانت ما تزال تمسك بمسدس الـ 22، بينما ركل بجزمته الثانية السلاح بعيداً.

– هل أنتَ بخير، بابا؟ – تقدم راؤول نحوه.

– لا أدري، أظنّ ذلك.

– هل أنت متأكّد؟

– قلتُ لك نعم. وهذا المسدس؟

– لا بدّ أنّه له. عثرنا عليه أنا وكاليستو.

– السافل هذا كان يريد قتلك، إرنستو– قال كاليستو.

– هل تظنّ ذلك؟

– نعم، أظنّ ذلك – وأسند التومسون إلى الحائط.

***

– لماذا لا تريد أن تذهب إلى مديريّة الشرطة؟

– لا أحبّها.

– ألم تعد إليها قط؟

– إطلاقاً– أكّد كونده ومال ليعاين النار. تحقق من أنّ القهوة بدأت ترشح في الجذوة–. ما عدت رجل شرطة وليس في نيّتي أن أصبح رجل شرطة ثانية.

جلس الملازم مانويل پلاثيوس على الطاولة وفي يده جريدة قديمة راح يحرّك بها الهواء من حوله. رفض كونده، رغم إلحاح صديقه، أن يتكلّم مع رئيس المباحث في المديرية، ووافق فقط على أن يحمله مانولو في السيارة إلى بيته.

تناول كونده قدح القهوة الكبير، بحركات محسوبة، ووضع فيه الكمية المطلوبة من السكّر ثمّ صبّ القهوة. حرّكها بخبرة المجرّب وأعادها إلى الجذوة. ثمّ صبّ لصديقه في فنجان صغير وصبّ لنفسه في القدح الكبير نفسه. تنشق عطر القهوة الساخن وأحسّ بمتعة يعرفها مذاقه. وأخيراً صبّ القليل منها في إناء ونادى على كلبه، وكان مستلقياً تحت الطاولة.

– هيّا، *باسورا*، القهوة.

تمطّى الكلب وتقدم نحو الإناء. حشر لسانه وسحب مخطمه.

– انفخ فيه أولاً، *باسورا*، فهي ما زالت ساخنة.

– حمّمه بدلاً من أن تعطيه قهوة.

– القهوة تعجبه أكثر من الحمّام. أليست جيدة؟

– لذيذة جداً – ردّ مانولو–. من أين تأتي بهذه القهوة اللذيذة، كونده؟

– إنّها من الدومنيكان. يرسلها إلي أحد أصدقاء المدير العجوز الذي صار صديقاً لي. فريدي خينيبرا. ألا تعرفه؟

– لا، لا أعرفه.

– معقولة؟ الجميع يعرفون فريدي خينيبرا...حسناً، ما هي خططك؟

– لا أدري. هناك أشياء أظنّ أنّنا لن نعرفها أبداً. على أيّة حال أريد أن أتكلّم مع توريبيو ومع تينوريو. فربّما يعلمان بشيء...

– دع هذين في أمان. أنا أميل إلى أنّ لا همنغوي ولا كاليستو ولا راؤول تحدثوا بشيء حول ما جرى تلك الليلة. أرى أنّهم الوحيدون الذين يعرفون القصّة كاملة. وثلاثتهم ماتوا– كان كونده يدخن وينظر عبر النافذة المفتوحة–. ها قد عرفنا كلّ ما يمكن معرفته...

– أرى أنّ كاليستو هو من قتل الشرطي. وإلا لماذا سفّروه إلى المكسيك.

– لستُ مقتنعاً إلى هذا الحد. فأيّ شيء جائز. ربّما اقتصر دور كاليستو على أنّه شهد الحادث، وربّما كانت الأف بي آي تلاحق كاليستو لا همنغوي... ثمّ، إذا كانوا أخفوا الجثة فلماذا أرسلوا بكاليستو إلى المكسيك؟ هل كان ذلك ربّما من قبيل ذر الرماد في العيون؟... هناك ما يثير الشكّ في كلّ ذلك ولا أستطيع أن أجزم بأنّ الفاعل هو كاليستو.

– لو ضغطتُ قليلاً على عنق تينوريو...

– لا تكن شرطياً إلى هذا الحد، مانولو. دع تينوريو وحاله. كيف ستضغط على عنقه وهو لم يكن مولوداً حين قتلوا ذلك الرجل؟...

– ماذا دهاك، كونده؟ أنا متأكد من أنّ تينوريو يخبئ شيئاً. وأنتَ تعلم هذا. فلماذا لا تريد أن تصل إلى الحقيقة؟ اسمع، همنغوي سفّر كاليستو من كوبا لحمايته. هو أيضاً كان قادراً على تلك الأشياء، أليس كذلك؟– لم يتوقف مانولو عن التطلع إلى كونده–. وحين أنقذ كاليستو، فلأنّه تصرّف معه تصرّف الأصدقاء.

– كلام جميل، ولكن، ما لا أفهمه هو لماذا اضطر إلى إشراك الجميع في هذه القضيّة. من المفروض أنّ المزرعة كانت خالية إلا من همنغوي وكاليستو، وفجأة نجد راؤول وتوريبيو، ثمّ جاءوا بروبيرتو. ألا يبدو لك ذلك غريباً؟ ثمّ الرصاصة الثانية، أين هي الرصاصة الثانية؟ وهل هي رصاصة التومسون؟

– كونده، كونده...– بدأ مانولو بالاحتجاج.

– وماذا تقول لو أنّ الرصاصة الثانية لم تكن رصاصة تومسون؟ وما قولك لو أنّ القاتل هو همنغوي وأنّه سفّر كاليستو لسبب آخر؟ ربّما لكي لا يقع في يد شرطي سافل يجبره على الاعتراف بكلّ شيء...

– كم يعجبك تعقيد الأمور. اسمع، ما لم أستوعبه حتى الآن هو وجود عميل الأف بي آي في البيت. ماذا كان يفعل هناك؟ لأنّ المراقبة شيء والملاحقة شيء آخر... ثمّ إنّ همنغوي لم يكن غبياً بحيث يستطيعون أن يضغطوا عليه هكذا بسهولة. وأتساءل أيضاً لماذا لم يلقوا بالشارة أيضاً في البحر؟

تناول مانولو سيجارة من علبة كونده ونهض. تقدم نحو باب المطبخ، المفتوح نحو الشرفة والباحة المظللة بشجرة المانغو القديمة.

– أتمنّى أن أطّلع على الصفحات الخمس عشرة الناقصة من إضبارة الأف بي آي – نفث مانولو الدخان والتفت–. لا أدري لماذا، لكنّي أظنّ أنّ في تلك الأوراق مفتاحَ كلّ ما حدث تلك الليلة. فهل للأمر علاقة بالغواصات والبترول؟

– لقد اكتشف همنغوي هوية من كان يزود النازيين بالوقود في كوبا، وقد تكتّمت الأف بي آي عليه... ومن الأسرار ما قتل، مانولو. أمّا هذا السر فقد قتل على الأقل رجلين: الشرطي وهمنغوي. هنا خسر الجميع.

– أوكي، أوكي... ولكن، أما عدتَ تستثقله؟

– لا أدري. يجب أن أنتظر نزول المدّ.

– أتدري؟ قرأت ثانية القصّة التي أخبرتني عنها. قصّة النهر الكبير ذو القلبين.

– وماذا؟

– إنّها قصّة غريبة، كونده. لا يحدث فيها شيء، مع ذلك تشعر وكأنّ أشياء كثيرة تحدث. هو لا يحكي ما يجب على الواحد أن يتصوّره.

– هو بارع في هذا. تقنيّة جبل الجليد. هل تذكر؟ سبعة أجزاء مخفيّة تحت الماء، واحد منها منظور، على السطح...كما الآن، أليس كذلك؟ حين اكتشفتُ جمال طريقته، بدأتُ أقلّده.

– وماذا تكتب الآن؟

شفط كونده نفسين من سيجارته، إلى أن أحسّ بالحرارة بين أصابعه. نظر إلى عقب السيجارة لحظة ورمى به من النافذة.

– قصة صداقة بين شرطي ولوطي.

عاد مانولو إلى المطبخ وهو يبتسم.

– اللعنة على أمّكَ في الدنيا قبل الآخرة– قال كونده.

– أوكي، أوكي. كلّ واحد يكتب عمّا يستطيع وليس عمّا يريد– أقرّ الآخر.

– هل ستُغلق القضيّة؟

– لا أدري. هناك أشياء لا نعرفها، وأعتقد أنّنا لن نصل إلى معرفتها أبداً. أليس كذلك؟ إن كنتُ أغلقها، فلأنّها كانت موجودة. وإذا كانت موجودة، فستأتيك الأخبار. ليس مهماً أن يكون الفاعلُ كاليستو أم راؤول أم كان هو، المهم أنّ بلبلة كبيرة ستحدث. وأنا ما زلتُ أفكّر فيمن سيفكّر، بعد أربعين عاماً، في هذا الميّت؟

– هل ترى ما أراه؟

– أرى أنّنا إن لم نكن نعرف من قتله ولا لماذا قتله ولا نستطيع أن نتهم أحداً ولم يظهر من يطالب بجثته... فمن الأفضل أن ننسى جراب العظام هذا؟

– وماذا عن رؤسائك؟

– ربّما أستطيع إقناعهم. ربّما...

– لو كان المدير هو العجوز لكان ذلك ممكناً. كان الميجور رانخيل يبدو صارماً، لكنّه كان طيب القلب. كنتُ سأقنعه.

– فماذا تظنّ إذن؟

– انتظر هنا.

ذهب كونده إلى الغرفة وعاد وفي يده سيرة حياة همنغوي التي كان يقرأها.

– انظر إلى هذه الصورة – وأعطى مانولو الكتاب.

يظهر همنغوي واقفاً في لقطة جانبيّة، وفي خلفيّة صفّ من الأشجار. شعر أبيض ولحية بيضاء تماماً، أمّا قميص الغنغهام فيبدو كأنّه لهمنغوي آخر، أضخم جسماً من الذي يبدو في الصورة: كان جسمه قد انكمش،

وكتفاه تهدلتا وضاقتا. كان ينظر مطرقاً إلى شيء لا يظهر في الصورة، وكان يكفي أن تنظر إلى تلك الصورة ليتملكك إحساس مقلق بصدقها. كانت ملامحه ملامح عجوز طاعن في السن، وبالكاد تذكّر باسم الرجل الذي طالما استعذب العنف واستلذّه. أسفل الصورة إشارة إلى أنّها التقطت في «كيتشوم»، قبل إقامته الأخيرة في المستشفى، وكانت واحدة من آخر صوره.

– إلى ماذا تراه ينظر؟ – سأل مانولو.

– إلى شيء على الطرف الآخر من النهر، بين الأشجار– ردّ كونده–. كان ينظر إلى نفسه، من دون جمهور، من دون ثياب تنكريّة، من دون أضواء. كان ينظر إلى رجل قهرته الحياة. بعد شهر أطلق النار على نفسه.

– نعم، يظهر منكسراً.

– على العكس: هنا يبدو متحرراً من الشخصيّة التي حبس نفسه فيها. هذا هو همنغوي الحقيقي، مانولو. ها هو الرجل الذي كتب النهر الكبير ذو القلبين.

– هل تريد أن أخبرك بما سأفعل؟

– لا، لا تخبرني – قاطعة كونده رافضاً، حتى بتحريك يده–. هذا هو الجانب الخفيّ من جبل الجليد. دعني أتصوّره.

***

كان البحر يرسم بقعة لا يُسبر لها غور، بقعة تبعث على اليأس. وما كان لارتفاع موجه العابر أن يغيّر من رتابته الكالحة إلا حين يرتطم بصخور ساحله. من بعيد، كان ضوءان خافتان يدلان على وجود قوارب صيد عازمة على أن تُخرج من المحيط شيئاً لا يُرى، لكنّه شيء مرغوب مطلوب: إنّه التحدي الأبدي المثير المؤثر الذي طالما حرّك أولئك الصيادين، فكّر كونده.

راح كونده والفلاكو والكونيخو، وقد جلسوا عند السور، يشربون من مخزون الرون الذي حملوه معهم. وبعد أن التهموا الدجاج بالثوم وقدر القلقاس المرشوش بصلصة النارنج وصحون الرز وكريات البونويلو المغموسة في المرق التي أعدتها خوسيفينا، من دون أن يسأل أحدٌ عن مصدر تلك العجائب التي اختفت من الجزيرة، ألحّ الكونده على أن يذهبوا إلى

«كوخيمار» إن كان أصدقاؤه يريدون سماع قصّة مصرع عنصر الأف بي آي في مزرعة «بيخيا» كاملة. وطلب الكونيخو من أخيه أن يعيره أفخم سيارة فورد فايرلاند موديل 1958 في كوبا. أمّا معجزة تحويل تلك الخردة إلى سيّارة باتت تساوي آلاف الدولارات، فقد تحققت بفضل إصرار الكونيخو الأصغر، الذي جمع المال اللازم لشرائها وتزيينها خلال الأشهر الستة التي أمضاها يتلقى راتبه بالدولار، مديراً لمخبز بدا أقرب إلى منجمٍ للذهب منه إلى فرنٍ للخبز.

تعاون كونده والكونيخو على حمل كارلوس من كرسيه المتحرك إلى سور الكورنيش ثمّ رفعا ساقي الصديق المشلولتين بعناية حتّى علقاها باتجاه الشاطئ. باتت أنوار البلدة وراء ظهورهم، بعيداً عن تمثال همنغوي النصفي الأخضر، وأحسّ الثلاثة بالراحة في ذلك المكان، قبالة البحر، إلى جانب الحصن الإسباني، مستمتعين بنسيم الليل وهم يستمعون إلى الحكاية مباشرة من فم كونده ويشربون الرون مباشرة من فم الزجاجة.

– ثمّ ماذا؟ – سأل الكونيخو، صاحب المنطق المتشدد الذي ينتظر ردوداً مبنيّة أيضاً على منطق متشدد.

– أظنّ أن لا شيء – قال كونده، بعد أن رجع إلى آخر ما بقي من صفاء ذهنه، وهو موشك على أن يغرق في الكحول.

– هذا هو أفضل ما في هذه القصّة– قال الفلاكو كارلوس بعد أن أخرج آخر القطرات من زجاجة الرون الثانية–. فكأنّ شيئاً لم يحدث. فما من ميت ولا قاتل ولا شيء. يعجبني هذا...

– لكنّي أرى همنغوي الآن مختلفاً قليلاً...لا أدري. قليلاً.

– جيد أن تراه مختلفاً، كونده– تدخل الفلاكو–. فالرجل كان أولاً وأخيراً كاتباً وهذا هو أكثر ما يهمّك، لأنّك كاتبٌ ولست شرطياً، ولا محققاً، ولا بياع بطيخ. كاتب: أليس كذلك؟

– لا، أيّها الهمجي، لستُ متأكداً تماماً. تذكّر أنّ هناك أنواعاً كثيرة من الكتّاب – وبدأ يعدّ بأصابعه–: الجيدون والرديئون؛ عزيزو النفس والرخيصون؛ من يكتبون ومن يقولون إنّهم يكتبون؛ الأوغاد والمحترمون...

– وأين تضع همنغوي من هؤلاء؟ قل لنا– سأل الفلاكو.

فتح كونده فلينة الزجاجة الثالثة وتناول جرعة خفيفة.

- أظنّ أنّه كان قليلاً من كلّ ذلك.

- أكثر ما يغيظني فيه أنّه لم يكن يرى غير ما يهمه أن يراه. عن هذا المكان- قال الكونيخو وأدار وجهه نحو البلدة-، كان يقول إنّه ضيعة صيادين. يا لفعل أمّه: لم يقل أحد في كوبا عن هذه إنّها ضيعة صيادين ولا غير صيادين، ولذلك فإنّ سانتياغو يمكن أن يكون أيّ شيء إلا صياداً من «كوخيمار».

- هذا أيضاً صحيح- قال كارلوس-. هو لم يفهم شيئاً. أو لم يهمّه أن يفهم، لا أدري. هل تعرف، كونده، إن كان وقع ذات مرة في غرام كوبيّة؟

- لا أعرف، في الواقع.

- فكيف كان يحاول أن يكتب عن كوبا؟- بدا الكونيخو هائجاً-. يا له من عجوز مخادع...

- الأدب كذبة كبيرة- قال كونده.

- كلّ ما يتفوّه به سخافات- تدخل الفلاكو كارلوس ووضع يده على كتف صديقه.

- لعلمكم- واصل كونده كلامه-، سأطلب الاشتراك في نادي الكوبيين الهمنغوانيين.

- وما هذا؟ - استفهم الكونيخو.

- واحدة من ألفي طريقة ممكنة ومؤكدة للتحامق والتغابي، لكنّها تعجبني: فلا رؤساء ولا قوانين ولا أحد يراقبك، يمكنك أن تدخل وتخرج وقت تشاء، بل في مقدورك أن تتغوّط على همنغوي.

- إن كان الأمر هكذا، فهو يعجبني أيضاً - فكّر الكونيخو-. أظنّ أنّي أيضاً سأسجّل اسمي في النادي. عاش الكوبيون الهمنغويون!

- اسمع، كونده- نظر الفلاكو إلى صديقه-، ولكن فاتك في هذه المعمعة أن تكتشف شيئاً...

- ما هو هذا الشيء، أيّها الهمجي؟

- سروال آقا غاردنر.

نظر كونده إلى الفلاكو.

- كنتُ أظنّ أنّكَ تعرفني جيداً.

وابتسم، وراح يفتش بإحدى يديه في جيب البنطلون الخلفي، بعد أن أبعد مؤخرته عن السور. وأخرج بحركات تحاكي حركات ساحر رخيص قطعة القماش الأسود، المغطاة بالدانتيل، نفس القطعة التي داعبت ذات يوم المواضع الحميمة لواحدة من أجمل النساء في العالم. فتح السروال الأسود بيديه، كأنه يعلقه على منشر غسيل، لكي يرى الصديقان حجم القطعة وشكلها وملمسها الشفاف، ويتخيلا، بعقلهما المحموم، اللحم الحي الذي شغل ذلك المجال زماناً.

- هل سرقته؟ - بلغ تعجبّ الفلاكو أقصى حدوده وكذلك شراهته وشهوته. مدّ يده وأمسك بالسروال ليشعر بحرارة قماش الرغبة في أصابعه وقريباً من عينيه.

- عظيم، كونده- قال له الكونيخو وابتسم.

- أليس من حقي أن أخرج من تلك الحكاية بشيء؟ هاتها، فلاكو-، فأعاد الصديق له قطعة القماش. بحث كونده بحذر عن مطاط السروال ومطّه ليضعه بعد ذلك على رأسه: وعندها وضعه كما لو كان طاقيّة-. حدّثني عن كاتب لبس تاجاً من الغار خيراً من هذا! هذه هي طاقيّتي الفريجيّة[47].

- حين تتعب من هذه المزحة اتركه لي - قال الكونيخو، ولم يبدُ أنّ كونده عازم على نزع السروال من رأسه.

- أعطني الرون- قال كونده وعاود الشرب.

- أراك سكرت- حذره الكونيخو.

من بعيد، بدا مركبٌ من المراكب يقترب من الساحل.

- أتراهم عثروا على شيء؟- سأل الفلاكو.

- بالتأكيد- ردّ كونده-. إلا إذا كانوا صعاليك متسكعين مثلنا...

47- . طاقيّة من اللباد مخروطيّة الشكل، في أعلاها تاج صغير. استعملها سكان إقليم فريجيا في آسيا الوسطى ولبسها العبيد المحررون في روما. استخدمت إبّان الثورة الفرنسيّة رمزا للحريّة.

وبصمت تابعوا مناورة المركب، الذي كان محرّكه يسعل متقطعاً كأنه موشك على الاختناق ببلغمه. ومرّ من أمامهم ببطء متجهاً نحو مرسى النهر.

- لا أدري كم سنة انقضت من دون أن آتي إلى «كوخيمار» - قال كارلوس الفلاكو.

- ما زال مكاناً غريباً- علّق كونده-. فكأن الزمان هنا لا يمضي.

- المشكلة أنّه يمضي، كونده، يمضي دائماً- أنهى الكونيخو بحسّه الهادئ الجدلي والتاريخي للعالم-. في المرة الأخيرة التي جئنا فيها إلى هنا كان أندريس معنا. هل تذكرون؟

- ناولني الرون- طلب كونده منهم الزجاجة-. سأشرب نخب الصديق أندريس.- وعبّ جرعة قويّة قاتلة.

- مرّت سبع سنوات منذ أن رحل إلى الشمال- تلقّى الفلاكو الزجاجة التي مررها له كونده. يا له من وقت طويل. لا أدري لماذا لا يريد أن يعود.

- أنا أدري- قال الكونيخو-: يريد أن يعيش من الطرف الآخر- وأشار إلى البحر-، فهو يريد أن ينتزع من الحياة ما لم يحصل عليه منها في هذا الطرف.

- أتظنّ ذلك؟- تدخل كارلوس- وكيف سيعيش من دون ما عاشه هنا؟ لا، كونيخو، لا...اسمع، قبل قليل كنتُ أتخيّل أندريس، وهو في الجانب الآخر، ينظر إلى البحر كما نفعل نحن، ويفكر فينا. فمن أجل هذا يكون الأصدقاء: ليتذكروا بعضهم بعضاً، أليس كذلك؟

- ما أروع ذلك لو تحقق- قال كونده-، أمّا لو حدث هذا فعلاً فسيكون مؤلماً جداً.

- أتذكر هذا الحقير كلّ يوم- قال كارلوس.

- أتذكره حين أكون سكران، كما أنا الآن- قال الكونيخو-. هكذا تكون القدرة على التحمّل أكثر. نائم أو سكران...

انحنى كونده إلى الأمام وبحث عن إحدى الزجاجات الفارغة التي رموا بها.

- هناك- قال للفلاكو.- ناولني تلك الزجاجة الفارغة.

- لِمَ تريدها؟- كان كارلوس يخشى تصرفات صديقه حين يكون ثملاً.

نظر كونده نحو البحر.

– أنا أيضاً أظنّ أنّ أندريس يجلس في الطرف الآخر، ينظر إلينا. أريد أن أرسل له رسالة. ناولني هذه الزجاجة الدنيئة.

حصر كونده الزجاجة بين ساقيه، والسيجارة بين شفتيه، وبحث عن ورقة في جيبه. لكنّه لم يجد في جيبه غير علبه فيها سيجارتان. احتفظ بالسيجارتين في جيبه وفتح العلبة بعناية بعد أن تحكّم برعشة يديه فصارت عنده قطعة ورق مستطيلة الشكل. أسند ظهره إلى السور، محاولاً أن يكسب بعض الضوء، وبدأ الكتابة على قطعة الورق، وهو يقرأ على الآخرين بصوت الكلمات التي راح يسطرها: «إلى أندريس، في مكان ما من الشمال: أيّها السافل، نجلس هنا ونتذكرك. ما زلنا نحبّك ولا شكّ أنّنا سنظل نحبك». توقف عن الكتابة، لكنّ القلم ظلّ ثابتاً على الورقة. «يقول الكونيخو إنّ الوقت يمضي، لكنّي أرى أنّ هذا كذب. ولكن إن كان ما يقوله صحيحاً، فليتك، وأنتَ في مكانك، ما زلت تحبنا، لأنّ هناك أشياء لا يمكن أن تضيع. وإن ضاعت، فاقرأ علينا السلام. لقد ضاع منّا كلّ شيء تقريباً، لذلك علينا أن ننقذ ما نحبّ. الوقت ليل، ونحن تحت تأثير ما شربنا. نشرب رون في «كوخيمار»: الفلاكو، الذي ما عاد نحيفاً، والكونيخو، الذي ما عاد مؤرخاً، وأنا، وأنا الذي ما عدت شرطياً، وما زلتُ عاجزاً عن كتابة حكاية رقيقة ومؤثرة، مؤثرة بحق... وأنتَ، ماذا أنتَ أو ماذا ليس أنتَ؟ نرسل لك بسلامنا، وبسلام آخر لهمنغوي، إن رأيته في طرفكم، لأنّنا أصبحنا من الكوبيين الهمنغويين. حين تتلقى هذه الرسالة، أعد إلينا الزجاجة، ولكن أعدها مملوءة». وقع ماريو كونده ثمّ مرّر الورقة إلى كارلوس وإلى الكونيخو، اللذين وضعا اسميهما على الرسالة. وبعناية، لفّ كونده الورقة ووضعها داخل الزجاجة. وعندها أنزل سروال آڤا غاردنر من على رأسه وبدأ بحشره داخل الزجاجة.

– هل جُننت – اعترض الكونيخو.

– وما نفع الأصدقاء، إذن؟– علّق كونده، حين وصل بالسروال إلى وسط الزجاجة.

– هذا ما أقوله– قال الفلاكو كارلوس.

– من المؤكد أنّ الرسالة ستصله يوم عيد ميلاده– تنبأ كونده، بعد أن عبّ جرعة من الرون، وراح يغنّي:

كلّ عام وأنت بخير، أندريس

إنّه يومُ ميلادك...

حين دخلت قطعة الملابس في الزجاجة كاملة، وضع كونده الفلّينة على فم الزجاجة، وضربها براحة يده لكي يكون الغلق محكماً.

– ستصل – أكّد كونده–. أنا متأكد من أنّ هذه الرسالة ستصل– وعبّ جرعة أخرى من زجاجة الرون الأخرى، طلباً لنعمة النسيان.

جاهد كونده، وهو ينفخ بخار الجرعة الكحوليّة، ليعدّل جلسته. تمكن من الوقوف على قدميه فوق السور. كان الكونيخو يردد: «كلّ عام وأنت بخير... كلّ عام وأنت بخير... كلّ عام وأنت بخير...». نظر كونده صوب البحر اللامتناهي، الحريص على إبعاد الرجال عن أجمل ذكرياتهم، ونظر إلى سرير الصخور العدواني، الذي عليه قد تتحطم أحلام الإنسان، أيّ إنسان، وآلامه. شرب جرعة أخرى، نخب النسيان، وصرخ بكلّ ما في رئتيه من هواء:

– وداااااعاً، همنغوي!

شدّ ذراعه نحو الخلف وألقى بالزجاجة إلى الماء. ظلّت الزجاجة، المحمّلة بأشواق أولئك الناجين على اليابسة، عائمة، تتلألأ مثل ماسة ثمينة، إلى أن لفتها موجة عاتية، وأخذتها بعيداً... نحو تلك البقعة المظلمة، حيث لا يمكن رؤية الأشياء إلا بعيون الذاكرة والرغبة.

مانتيّا، صيف 2000

مكتبة
t.me/t_pdf

في خريف ١٩٨٩ ، وبينما كان إعصارٌ عاتٍ يضرب هافانا، انتهى الملازم ماريو كونده من آخر قضيّة له في قسم التحقيقات. كان قد اتّخذ قراره بترك العمل في الشرطة والتفرّغ للكتابة. قدّم استقالته يوم أتمّ السادسة والثلاثين. يومها بلغه خبرُ عزم أحد أصدقائه القدامى على مغادرة كوبا إلى غير رجعة، وقد أشرتُ إلى مغامرة ماريو كونده الأخيرة هذه في رواية منظر خريفي، وهي الأخيرةُ في سلسلة «الفصول الأربعة»، التي كتبتُها ونشرتُها بين عامي ١٩٩٠ و ١٩٩٧ ، والتي ضمّت أيضا روايات «ماض تام» و «رياح الصوم الكبير» و «أقنعة.»

قررتُ، إذن، أن أمنح ماريو كونده إجازة لوقت بدا لي أنّه سيطول، وبدأتُ بكتابة رواية لم أشركْه فيها. في تلك الأثناء، اتصل بي ناشرو كتبي البرازيليون، وسألوني إن كنتُ راغباً في المشاركة في سلسلة يعتزمون إصدارها تحت عنوان «أدبٌ أو موت»، وطلبوا منّي أن أخبرهم، في حال موافقتي، عن اسم الأديب الذي ستدور حوله حكايتي. وصادفتْ فكرة البرازيليين قبولاً في نفسي. أمّا الأديبُ الذي وقع عليه اختياري فهو إرنست همنغوي، الذي كانت لي معه، ولسنوات، علاقة غريبة، هي مزيج من حُبّ ونفور. لم يخطر ببالي، حين فكّرتُ في تناول موقفي الشخصي من مؤلف «حفلة»، غير أن أرمي بأحاسيسي وهواجسي على عاتق ماريو كونده – كما فعلتُ مرات ومرات–، وأجعلَ منه – كما فعلتُ مرات ومرّات– بطلَ الحكاية.

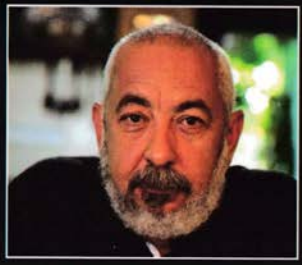

فكّرت أن أبني أحداث هذه الرواية على علاقة مزعومة بين همنغوي وكونده، نشأت إثرَ اكتشاف جثة دفنت في مزرعة المؤلف الأمريكي في هافانا. هنا أجدُ لزاماً عليّ أن أنبّه إلى وجوب ألّا تخرجَ الرواية عن نطاق صفتها ووصفها، كيفما قُرئت، ومن أيّة زاوية رُصدت: فما ستقرأون محضُ رواية، حكايةٌ صِرف، بل لقد أضفتُ على الكثير من أحداثها، بما فيها التي استقيتها من أصحّ الوقائع وأدقّ التواريخ، من خيالي إلى درجة أنّي ما عدتُ أدري أين تنتهي ريشة المروحة اليدوية هذه وأين تبدأ تلك. مع ذلك، وعلى الرغم من أنّني أبقيتُ على بعض الشخوص أسماءها الحقيقيّة، فقد أعدتُ تسمية أخرى تجنّباً لحساسيات محتملة، لذلك امتزجت شخصياتُ الواقع بشخوص الخيال، في أرض لا حكم فيها إلا لقواعد الرواية ولا كلمة فيها إلا لزمانها. وعليه، فهمنغوَي هذه الرواية همنغوَي مصطنع، مصنوع، لأنّ القصّة التي سنراه فيها من نسج خيالي، بل لقد استعنتُ فيها بالإجازات الشعريّة وأساليب ما بعد الحداثة، واستخدمتُ فقراتٍ من أعماله ومقابلاته لنسج أحداث الليلة الليلاء، ليلة الثاني على الثالث من أكتوبر ١٩٥٨ .

ل. پ .

telegram @t_pdf